الفصل الثالث

# المسيحيون: عالم جديد جميل

## (١٤٩٢-١٨٧٠)

في الوقت الذى كان اليهود يحاولون فيه مواجهة عواقب طردهم من اسبانيا وما أحدثه من صدمات نفسية، والمسلمون ينشئون امبراطورياتهم العظمى الثلاث، كان المسيحيون فى الغرب قد بدأوا السير فى الطريق الذى انتهى بهم إلى مواقع أبعد ما تكون عن ثوابت اليقين والمقدسات فى العالم القديم، وكانت تلك أياماً مثيرة، وإن كانت غاصة ببواعث القلق، ففى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان الطاعون أو الموت الأسود قد حصد أرواح ثلث سكان العالم المسيحى، وتعرضت الأقطار الأوروبية للخراب الذى جرته الصراعات المديدة مثل حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا، ومثل الحروب الإيطالية المدمرة للغالب والمغلوب جميعاً.

3

وكان الأوربيون قد تحملوا صدمة الفتح العثماني لبيزنطة المسيحية في ١٤٥٣، كما إن الفضائح البابوية فيما يسمى بحصن أڤينيون، و"الانقسام الأعظم" - عندما حاول ثلاثة من البابوات إثبات أحقيتهم في خلافة القديس بطرس في الوقت نفسه - قد دفعت الكثيرين إلى فقدان الإيمان بالكنيسة الرسمية، وكان الناس يستشعرون خوفًا غامضًا ويدركون أنهم لن يستطيعوا أن يمارسوا الدين بالأسلوب القديم، ومع ذلك فقد كانت تلك الفترة أيضًا فترة تحرير ونقل للسلطة. فكان المستكشفون من شبه جزيرة أيبيريا قد اكتشفوا عالمًا جديدًا، وكان الفلكيون يفتحون مغاليق السماوات، وكانت الكفاءة التقنية الجديدة قد زادت من قدرة أبناء أوروبا على السيطرة على البيئة إلى حد لم يبلغه أي إنسان من قبل. وإذا كانت الروح المحافظة قد علّمت الرجال والنساء ألا يتخطوا الحدود التي وُضعت بدقة وعناية، فإن الثقافة الجديدة للعالم المسيحي الغربي أثبتت لهم أنهم يستطيعون الخروج عن حدود العالم المعروف وتخطّيها دون أن يهلكوا، بل قد يكون في هذا

الخروج ازدهار لهم. ومن شأن ذلك أن يجعل الدين القديم المبنى على منطق الروح وحده محالاً، آخر الأمر، إذ يبدو أن الحداثة الغربية كانت معادية فى صُلبها للدين.

ولكن ذلك لم يحدث فى المراحل الأولى للتحول المذكور فى المجتمع الغربى، إذ كان الكثيرون من المستكشفين والعلماء والمفكرين يعتقدون فى لحظات التحول الحاسمة أنهم يبحثون عن طرائق جديدة للتديّن لا لإلغاء الدين تماماً. وسوف نفحص بعض الحلول التى اهتدوا إليها فى هذا الفصل وننظر فى دلالاتها العميقة. ولكنه من المهم أن نوضح أن الذين أصبحوا يتحدثون باسم الروح الحديثة لم يكونوا هم الذين أوجدوها. فما إن حل القرن السادس عشر حتى كانت مجموعة من العوامل قد تشابكت وتضافرت فى أوروبا أولاً، ثم فى المستعمرات الأمريكية ثانياً، فغيّرت من أساليب تفكير الناس وإحساسهم بالدنيا. وقد حدث ذلك التغيير تدريجيا بل ودون أن يلحظه أحد فى حالات كثيرة، فكانت المخترعات والابتكارات تظهر فى نفس الوقت فى ميادين كثيرة ومختلفة، ولم يكن يبدو أن أيا منها له دور حاسم فى تلك الآونة، ولكن آثارها التراكمية هى التى حسمت

القضية. وكانت جميع هذه المكتشفات تتميز بالروح العلمية البراجماتية التى عملت على التقويض البطئ لمنطق الروح القديم وهيأت أعداداً متزايدة من الناس لتقبل أفكار جديدة عن الله، والدين، والدولة، والفرد، والمجتمع. وكان على أوروبا والمستعمرات الأمريكية أن تستوعب هذه التغييرات فى إطار ترتيبات سياسية مختلفة. وكانت تلك الفترة، شأنها فى ذلك شأن أى فترة تغير اجتماعى بعيد الأثر، تتسم بالعنف، مثل اندلاع الحروب والثورات المدمرة، وانتزاع البعض من مواطنهم عَنْوة، وتخريب الريف ونهبه، والصراعات الدينية الكريهة. وكان على الأوربيين والأمريكيين، على امتداد ثلاثمائة عام، أن يتوسلوا بأساليب لا هوادة فيها ولا رحمة لتحديث مجتمعهم، فأهرقت الدماء، وانتشر الاضطهاد وعقدت محاكم التفتيش، ووقعت المذابح، وشاع الاستغلال، والاستعباد، والقسوة. ونحن نشهد اليوم الأحداث الدامية نفسها فى بعض البلاد النامية التى تمر بمرحلة التحديث الأليمة.

كان ترشيد النشاط الزراعى عاملاً محدوداً من عوامل التغيير. ولكن زيادة الإنتاجية وتحسن صحة الثروة الحيوانية عادا بالخير على حياة كل فرد، كما شهدت تلك الفترة عوامل تحسن 'متخصصة' مثل صناعة الأدوات الدقيقة، فكانت البوصلة والتليسكوب والعدسة المكبّرة من الأدوات التى كشفت عن عوالم جديدة وساهمت فى تحسين الرسوم والخرائط والأساليب البحرية. وتمكن أستاذ هولندى متخصص فى الدراسة الميكروسكوبية، يدعى "أنطونى فان ليوفنهوك"، من رصد البكتيريا والكائنات الوحيدة الخلية وغيرها من الكائنات الصغرى لأول مرة، وكُتب لملاحظاته أن تلقى الضوء يوماً ما على عمليات التوالد والتحلل والفساد. ولم يكن تأثير ذلك يقتصر على الفوائد العملية الخاصة بالقضاء على الأمراض، بل تخطاها إلى تفريغ هذه المجالات الأساسية للحياة والموت من محتواها الأسطورى. وبدأ الطب فى التحسن، وعلى الرغم من أن العلاج ظل غير مؤكد حتى وقت متقدم فى القرن التاسع عشر، فقد ازداد الاهتمام فى القرن السابع عشر بالمرافق الصحية، واستطاع الأطباء تحديد بعض الأمراض وتعريفها تعريفاً صحيحاً للمرة الأولى. وبدأت علوم الأرض فى التطور أيضاً، وأدت مناقشة بعض الظواهر الطبيعية مثل الزلازل والبراكين إلى الدفع بالاعتبارات

الأسطورية لمثل هذه الأحداث إلى خلفية الصورة. وتحسنت الأدوات الميكانيكية، فازداد إمكان الوثوق بالساعات الكبيرة ودقة ساعات اليد، وهو التطور الذى أدى إلى إخضاع الزمن للنظرة العلمانية، وأدى تطبيق الأساليب الرياضية والإحصائية إلى منح الناس إحساساً بالغ الجدة بالمستقبل. ففى الخمسينيات والستينيات من القرن السابع عشر بدأت كلمة "المحتمل" تغيّر من معناها، فلم تعد تعنى ذلك الذى "يؤيده الثقات" على نحو ما كانت تعنى فى الفترة المحافظة، بل أصبحت تعنى "المرجح وقوعه استناداً إلى جميع الأدلة القائمة". وقد أدى ذلك الموقف المستقل والثقة فى المستقبل إلى اندفاع جديد إلى طلب الإثبات العلمى والترشيد البيروقراطى. وكان إثنان من علماء الإحصاء البريطانيين هما "وليم بيرى" و "جون جرونت" يبديان اهتماماً كبيراً بموضوع العمر المتوقع، وفى أوائل القرن الثامن عشر بدأ الناس فى أوروبا يمارسون التأمين على الحياة. وكان يمكن أن يكون ذلك كله هدّاما للروح المحافظة.

ولم يكن أى تطور من هذه التطورات فى ذاته حاسماً، ولكنها مجتمعةً كانت ذات تأثير ثورى. وبحلول عام ١٦٠٠، كان التجديد يحدث على نطاق شاسع إلى الحد الذى جعل التقدم يبدو محتوماً ولا رجعة فيه. فالاكتشاف الذى يقع فى مجال ما كان يؤدى إلى اكتشافات فى مجال آخر، فاكتسب ذلك النشاط زَخَماً لا يمكن إيقافه. فبعد أن كان الأوروبيون يرون الدنيا خاضعة لقوانين أساسية لا يمكن تغييرها، بدأوا يدركون أنهم يستطيعون استكشاف الطبيعة واستغلالها والخروج بنتائج مذهلة، والتحكم فى البيئة وتلبية احتياجاتهم المادية إلى حد لم يصلوا إليه من قبل. ولكن اعتياد الناس ترشيد حياتهم على هذا النحو أدى إلى سطوع منطق العقل وإنكار صحة منطق الروح. فبات الناس أشد ثقة فى المستقبل، بعد أن أصبح فى مقدورهم أن يرسوا أسس التغيير ويرسخوه دون توقع عواقب وخيمة، فأصبح الأغنياء على استعداد، مثلاً، لإعادة استثمار رأس المال بصورة منتظمة على أساس استمرار التجديد، وعلى أساس التوقع الثابت بأن التجارة سوف تواصل ارتقاءها. واستعان الغرب بهذا الاقتصاد الرأسمالى فى إبدال وتجديد موارده إلى ما لا نهاية، وبحيث أصبح حصينا آمناً من التأثر بالقيود والحدود التى تعيش فى ظلها المجتمعات القديمة القائمة على الزراعة. وعندما أدى ترشيد المجتمع وأخذه بأسباب

التكنولوجيا إلى الانقلاب الصناعى فى القرن التاسع عشر ، كان الغربيون قد ازدادت ثقتهم فى استمرار التقدم إلى الحد الذى جعلهم لا يلتفتون إلى الماضى طلبًا للإلهام، بل غدوا يرون الحياة فى صورة تقدم غير هيّاب نحو إنجازات أكبر وأعظم فى المستقبل.

وكان السير فى هذا الطريق يتضمن التغير الاجتماعى ، إذ كان يتطلب أعدادًا متزايدة من الناس للمشاركة على مستوى بالغ التواضع في التحديث ، وهكذا أصبح الناس العاديون يعملون بالطباعة أو تشغيل الآلات ، أو عمالاً فى المصانع ، وكان عليهم أن يصلوا ، على نحو ما ، إلى مستويات الكفاءة الحديثة. وهكذا أصبح من اللازم توفير التعليم، ولو بقدر محدود ، لأعداد أكبر من الناس. وتمكنت أعداد متزايدة من العمال من القراءة والكتابة ، وهو ما إن يحدث حتى يطالبوا حتمًا بمشاركة أكبر فى عمليات اتخاذ القرار فى مجتمعاتهم ، مما يعنى ضرورة زيادة الطابع الديموقراطى للحكومة ، فإذا أرادت الأمة أن تستخدم جميع مواردها البشرية فى التحديث وزيادة إنتاجيتها ، فلابد لها من إدراج الجماعات التى كانت معزولة ومهمشة حتى ذلك الوقت فى تيار الثقافة الرئيسى. ومن ثم فإن الطبقات العاملة التى تلقت التعليم حديثًا لن تخضع إلى أنماط المراتب الاجتماعية القديمة. وهكذا فإن المثل العليا للديمقوقراطية والتسامح وحقوق الإنسان العالمية ، التى أصبحت من القيم المقدسة فى الثقافة العلمانية الغربية ، ظهرت باعتبارها جانبًا من جوانب عملية التحديث المعقدة ، إذ لم تكن مجرد مثل عليا جميلة من ثمار أحلام الساسة وعلماء السياسة ، بل كانت ، إلى حد ما على الأقل ، مما فرضته احتياجات الدولة الحديثة. ففى أوائل العصر الحديث فى أوروبا كانت التغييرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية جزءًا من عملية متداخلة العناصر ، فكل عنصر فيها يعتمد على العناصر الأخرى ، واكتشف الناس أن الديموقراطية تمثل أكفأ وأخصب وسيلة لتنظيم المجتمع الحديث ، وهو ما اتضح عندما رفضت دول شرق أوروبا تطبيق المعايير الديموقراطية وتوسلت بالأساليب الصارمة العنيفة فى إدراج الجماعات "الخارجة" فى التيار الرئيسى ، فتخلفت بذلك عن السير على طريق التقدم.

وهكذا كانت الفترة مثيرة ساحرة، ولكن كانت أيضًا فترة تغيرات سياسية جذرية حاول الناس استيعابها عن طريق الدين. فالأشكال القروسطية القديمة للدين لم تعد تأتى بالراحة والسلوى، لأنها لم تكن قادرة على أداء المهمة المنوطة بها بوضوح فى تلك الظروف المتغيرة، أى إنه كان لابد من تحقيق المزيد من الكفاءة والإنسيابية فى النشاط الدينى أيضًا على نحو ما حدث إبان حركة الإصلاح الكاثوليكى فى القرن السادس عشر. ولكن حركات الإصلاح فى مطلع الفترة الحديثة كانت تدل على أن الأوربيين كانوا ما يزالون ينتمون إلى الروح المحافظة، على الرغم من أن عملية التحديث كانت قد قطعت شوطًا كبيرًا فى القرن السادس عشر، فكان المصلحون من البروتستانت، شأنهم فى ذلك شأن كبار المصلحين المسلمين الذين عرضنا لهم، يحاولون أن يجدوا حلاً جديدًا فى فترة التغيير بالعودة إلى الماضى. فكان كل من مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٥٦) وجون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) وهالدريتش زفنجلى (١٤٨٤ - ١٥٣١) ينظر إلى الخلف باسم العودة "إلى المنبع"، أى إلى المصادر الأولى للتقاليد المسيحية. وكما فعل ابن تيمية فى رفض اللاهوت والفقه القروسطى حتى يعود الإسلام فى صورته النقية فى القرآن وفى السُّنّة، قام لوثر بمهاجمة اللاهوتيين الاسكولائيين القروسطيين، وحاول أن يرجع إلى المسيحية النقية فى الكتاب المقدس وآباء الكنيسة. وهكذا كان المصلحون البروتستانت، مثل المصلحين المسلمين المحافظين، ثوريين ورجعيين فى الوقت ذاته، أى أنهم لم يكونوا قد أصبحوا بعد جزءًا من العالم الجديد الذى كان مقبلاً آنذاك، بل كانت جذورهم لا تزال راسخة فى العالم القديم.

ومع ذلك فقد كانوا فى الواقع من أبناء عصرهم الذى كان يمثل فترة انتقالية. وسوف نرى على امتداد هذا الكتاب أن عملية التحديث قد تؤدى إلى القلق البالغ، فالناس يشهدون تغيير عالمهم فتختلط الاتجاهات فى عيونهم ويشعرون بالتيه والضياع. ولما كانوا يعيشون فى خضم الأحداث نفسها فلم يكونون قادرين على إدراك الطريق الذى يسير مجتمعهم فيه، وإن كانوا يستشعرون تحولاته البطيئة بطرائق متفاوتة متناقضة، فمبادئ منطق الروح القديمة التى كانت تضفى المعنى والأهمية على حياتهم تتهاوى تحت تأثير التغيير، وهم قد يحسون من ثم بخدر فقدان الهوية وشلل اليأس. أما أكثر المشاعر شيوعًا، على نحو ما سوف

نرى، فهو العجز والخوف من الفناء الذى قد يتفجر فى الحالات التى يبلغ فيها الخوف ذروته فيتخذ شكل العنف. ونحن نشهد بعض ذلك فى لوثر، ففى مطلع حياته كان يتعرض لحالات اكتئاب أليمة، ولم تكن أى الطقوس والممارسات الدينية القروسطية بقادرة على أن تمس ما كان يسميه "بالهلع" الذى كان يصيبه بالرعب من الموت، وهو ما كان يتصور أنه حالة من الفناء التام. وعندما كان ذلك الرعب الأسود يهبط عليه، لم يكن يطيق أن يقرأ المزمور ٩٠ (من سفر المزامير بالكتاب المقدس) الذى يصف زوال الحياة البشرية ويصور الناس فى صورة من كتب عليهم غضب الله وسخطه ونقمته. وعلى امتداد حياته العملية كان يرى الموت تعبيراً عن غضب الله. وكان مذهبه اللاهوتى، الذى يستند إلى التبرير عن طريق الإيمان، يصور البشر فى صورة العاجزين عجزاً مطلقاً عن المساهمة فى تحقيق الخلاص لأنفسهم والذين يعتمدون اعتماداً كاملاً على رحمة الله ونعمائه، قائلاً إن خلاصهم لن يتحقق إلا عن طريق إدراكهم لعجزهم. وحاول لوثر الفرار من حالات الاكتئاب المذكورة فانطلق يعمل بجد ونشاط وقد عقد العزم على أن يعمل كل ما يستطيعه من العمل الصالح فى هذه الدنيا، وإن كانت الكراهية أيضاً تنهشه نهشا. وكان الغضب الجائح الذى يكنّه لوثر للبابا، وللأتراك، ولليهود. وللنساء، وللفلاحين المتمردين - ناهيك بكل من كان يعارض مذهبه اللاهوتى - من السمات التى اتسمت بها مواقف بعض المصلحين الآخرين فى يومنا هذا، ممن خاضوا غمار آلام العالم الجديد، وممن وضعوا لأنفسهم كذلك مذهباً دينياً كثيراً ما تساوت فيه كفة حب الله مع كفة كراهيتهم لغيرهم من البشر.

وكان زوينجلى وكالفن يشعران أيضاً بذلك العجز التام قبل أن يتمكنا من الانطلاق إلى رؤية دينية جديدة أتاحت لهما الإحساس بالميلاد الجديد. كانا على اقتناع أيضاً بأنهما لن يستطيعا المساهمة بشىء فى تحقيق الخلاص لأنفسهما وأنهما كانا عاجزين أمام محن الحياة الإنسانية وبلاياها. وكان كل منهما يؤكد السيادة المطلقة لله، على نحو ما يفعل الأصوليون المحدثون كثيراً، واضطر كل منهما، مثل لوثر، إلى إعادة تكوين عالمهما الدينى، وكانا يلجآن فى ذلك أحياناً إلى تدابير متطرفة، بل وإلى العنف، حتى يستطيع مذهبهما الدينى التجاوب مع أحوال العالم الذى كان قد التزم بالتحول الجذرى، وإن كان لم يفصح عن ذلك

الالتزام الذى لا رجوع عنه.

وكان المصلحون، باعتبارهم من أبناء عصرهم، يمثلون التغييرات التى كانت تتحقق فى كل يوم، فكان تركهم للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بمثابة إعلان استقلال، وكان ذلك من أوائل تلك "الإعلانات" التى كتب لها أن تنتشر فى طول التاريخ الغربى وعرضه منذ تلك اللحظة. فكما سوف نرى كانت الروح الجديدة تتطلب الاستقلال والحرية الكاملة، وهو ما كان المصلحون البروتستانت يتطلبونه من المسيحيين فى ذلك العالم الذى تغير، أى أن يتمتعوا بالحرية فى قراءة وتفسير الكتاب المقدس كما يشاءون، دون أن يتعرضوا لسيطرة الكنيسة وعقابها للمخالفين. (وإن كان الثلاثة حازمين لا تلين لهم قناة إزاء أى فرد يعارض تعاليمهم الخاصة. فكان لوثر يعتقد أن كتب البدع لابد أن تحرق، وكان كالفن وزوينجلى على استعداد لقتل المنشقين). وتبين حالة الرجال الثلاثة أن الفهم الرمزى القديم للدين كان قد بدأ يتصدع فى هذا العصر العقلانى. ففى إطار الروحانية المحافظة كان الرمز يتسم ببعض صفات الألوهية، وكان الناس يستشعرون القداسة فى الأشياء الأرضية، بحيث كان الرمز والألوهية لا ينفصلان. وكان المسيحيون فى القرون الوسطى يستشعرون القداسة فى آثار القديسين، وكانوا يرون فى خبز ونبيذ القربان المقدس مثالاً موازيًا للمسيح على المستوى الروحى، ولكن المصلحين أصبحوا يعلنون أن تلك الآثار كانت أصنامًا، وأن القربان المقدس "لا يزيد عن كونه" رمزًا، وأن القُداس ليس تمثيلاً شعائريا لتضحية كالڤارى بحيث يمكن اعتبارها قائمة على المستوى الروحى، بل مجرد شعيرة تذكارية. أى إنهم كانوا قد بدأوا يتحدثون عن منطق الروح فى الدين كما لو كان منطق العقل، وكانت السرعة التى اتسم بها اتباع الناس للمصلحين فى أوروبا دليلاً على أن كثيرًا من المسيحيين فى أوروبا قد بدأوا أيضًا يفقدون حساسية منطق الروح.

كانت العلمانية قد بدأت تطبع الحياة الأوروبية بطابعها تدريجيًا، وكان الإصلاح البروتستانتى، على الرغم من عمق دافعه الدينى وكثافته، من عوامل ذلك التحول العلمانى. فلئن كان المصلحون يزعمون أنهم كانوا يرجعون، شأن المحافظين، إلى النبع الأصلى، وهو الكتاب المقدس، فلقد كانوا يقرؤونه بمنهج

حديث. كانوا يقولون إن على المسيحي الذى أخذ بمذهب الإصلاح أن يقف وحده أمام الإله، فلا يستند إلا إلى الكتاب المقدس، ولكن ذلك لم يكن ليتحقق لو لم تكن الطباعة قد اخترعت فأصبح من الممكن لكل مسيحي أن يمتلك نسخة من الكتاب المقدس، ولو لم تكن القراءة والكتابة قد انتشرتا آنذاك فاستطاع الجميع قراءة ذلك الكتاب. وبدأ الناس، بصورة مطردة، يقرأون الكتاب المقدس ويفهمونه فهما حرفيًا طلبًا للمعلومات التي يتضمنها، بنفس المنهج الذى كان البروتستانت من دعاة الحداثة قد تعلموه في قراءة النصوص الأخرى تقريبًا. فالقراءة الصامتة وفي عزلة، من شأنها مساعدة المسيحيين على التحرر من أساليب التفسير التقليدية ومن إشراف الخبراء الدينيين، إلى جانب تأكيد الإيمان الفردى الذى يساعد على جعل الحقيقة تبدو مسألة ذاتية بصورة متزايدة - وتلك من خصائص العقلية الغربية الحديثة. ولكن لوثر الذى كان يؤكد أهمية الإيمان، كان يرفض العقل رفضًا شديدًا، إذ كان يستشعر فيما يبدو أن العقل سوف يصبح في مرحلة العقيدة المقبلة معاديًا للإيمان. فنحن نرى في كتاباته (دون كتابات كالڤن) انهيار الرؤية القديمة للتكامل بين العقل ومنطق الروح. وكان، بما أثر عنه من نبرة عدوانية، يتحدث عن أرسطو بكراهية، ويعرب عن بغضه لإرازموس إذ كان يرى فيه جُماع العقل، وكان على اقتناع بأن العقل لن يؤدى إلا إلى الإلحاد. وهكذا فإن لوثر عندما أخرج العقل من مجال الدين كان من أوائل الأوروبيين الذين جعلوه علمانيًا.

كان لوثر يقول إنه لما كان الإله خفيًا لا تدركه الأبصار، وسرًا يجل عن المدارك، فإن الدنيا خالية من الألوهية، وكان يقول إن الرب (الذى كان يسميه "الإله الخفي") لا يمكن اكتشافه لا في المؤسسات الإنسانية ولا في الواقع المادى. فالمسيحيون القروسطيون كانوا يستشعرون الربوبية في الكنيسة، ولكن لوثر كان يقول إن الكنيسة معادية للمسيح (أو أنها مسيخ دجّال) وإنه من غير المسموح به أن يصل أحد إلى معرفة الإله عن طريق تأمل نظام الكون الرائع على نحو ما كان اللاهوتيون الاسكولائيون يفعلونه (وقد صب عليهم لوثر جام غضبه). وكتابات لوثر تفصح عن إيمانه بإله بدأ ينسحب من العالم المادى، فالعالم المادى في نظره لا يتميز بأى دلالة دينية على الإطلاق. كما أضفى لوثر على

السياسة طابعًا علمانيًا، قائلاً إنه ما دام الواقع الدنيوى يتعارض تعارضًا كاملاً من الواقع الروحى، فلابد أن تستقل الكنيسة عن الدولة فى العمل، مع احترام كل منهما لمجال عمل الأخرى. وإذن فإن الرؤية الدينية المشبوبة عند لوثر جعلته من أوائل الأوروبيين الذين يدعون إلى الفصل بين الكنيسة والدولة. ومع ذلك فإن إضفاء العلمانية على السياسة قد بدأ بصفته أسلوبًا جديدًا للاستمساك بالدين.

وكان فصل الدين عن السياسة عند لوثر نابعًا من اشمئزازه من أساليب القهر والقسر التى اتبعتها الكنيسة الكاثوليكية بعد أن استخدمت الدولة فى فرض قواعدها الخاصة وما كانت تراه من "عقائد صحيحة"، ولكن كالڤن لم يشارك لوثر رؤيته لعالم خال من الربوبية، بل كان يؤمن مثل زوينجلى بأن على المسيحيين أن يعبروا عن إيمانهم بالمشاركة فى الحياة السياسية والاجتماعية لا بالانسحاب منها إلى الأديرة. وساعد "كالڤن" فى تعميد أخلاقيات العمل الرأسمالى الناشئة حين أعلن أن العمل جهد مقدس وليس عقابًا من الرب على الخطيئة، كما كان القروسطيون يزعمون، بل ولم يكن كالڤن يشارك لوثر فى امتعاضه من العالم الطبيعى، فكان يعتقد أن الإنسان يستطيع أن يرى الإله فى الخلق، أى فى كل ما خلقه الخالق، فأثنى على دراسة الفلك والجغرافيا والبيولوجيا. وكان أتباع كالڤن فى أوائل العصر الحديث من العلماء المجيدين فى حالات كثيرة، ولم يكن كالڤن يرى أى تناقض بين العلم والكتاب المقدس، فلم يكن الكتاب المقدس فى اعتقاده كتابًا قُصد به تقديم معلومات حرفية عن الجغرافيا أو علم الفلك، ولكنه يحاول التعبير عن الحقيقة التى يستحيل التعبير عنها مستخدمًا المفردات التى يستطيع البشر بقدراتهم المحدودة أن يفهموها. هكذا كان يقول إن لغة الكتاب المقدس لغة "طفولية" بمعنى أنها تبسيط متعمد لحقيقة على درجة من التعقيد تجعل الإفصاح عنها متعذرًا بأى أسلوب آخر.

وكان كبار العلماء فى أوائل العصر الحديث يشاركون كالڤن تلك الثقة، وكانوا أيضًا يعتبرون أن أبحاثهم ومناقشاتهم تدور فى إطار منطق الروح والدين. فعالم الفلك البولندى نيكولاوس كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) كان يعتقد أن علمه كان "إلهيًا أكثر منه إنسانيًا" ومع ذلك فإن نظريته التى تقول بأن الشمس هى

مركز الكون كانت ضربة قاصمة للفكرة الأسطورية القديمة. وكانت "فرضيته" المذهلة ثورية إلى الحد الذى حال دون تقبل الكثيرين فى زمانه لها واستيعابهم إياها، إذ قال إن الأرض ليست مركز الكون، بل إنها تدور هى والكواكب الأخرى حول الشمس بسرعة، فإذا نظرنا إلى السماء فتصورنا أن الأجرام السماوية تتحرك، فما ذلك إلا نتيجة لدوران الأرض فى الاتجاه المعاكس. وظلت نظرية كوبرنيكوس ناقصة، ولكن عالم الفيزياء الألمانى يوهانز كيبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) تمكّن من توفير الأدلة الحسابية على صحتها، ثم قام الفلكى جاليليو جاليلى، من مدينة بيزا (١٥٦٤ - ١٦٤٢) بإجراء اختبار عملى تجريبى لتلك "الفرضية" عن طريق رصد الكواكب بالتليسكوب، الآلة التى وصل بصناعتها إلى حد الإتقان، وعندما نشر جاليليو مكتشفاته فى عام ١٦١٢، أثار دهشة الجميع وعجبهم، وسرعان ما بدأ الناس فى شتى أرجاء أوروبا يصنعون التليسكوب ويبصرون ما فى السماوات من فوقهم بأعينهم.

وأرغمت محاكم التفتيش جاليليو على الصمت والعدول عما ذهب إليه. ولكن مزاجه المشاكس إلى حد ما كان له دوره فى الحكم بإدانته، فالمؤمنون بالدين فى أوائل العصر الحديث لم يكونوا يرفضون العلم تلقائيًا، وعندما عرض كوبيرنيكوس فرضيته أول الأمر فى الفاتيكان وافق البابا عليها، ولم يجد كالڤن ما يعيب النظرية، وكان العلماء أنفسهم ينظرون إلى بحوثهم باعتبارها دينية فى جوهرها. وكان كبلر يشعر بأنه يتملكه "جنون إلهى" وهو يكشف عن أسرار لم يسبق لأحد من أبناء البشر أن تمتع بمزية الاطلاع عليها، وكان جاليليو مقتنعًا بأن بحوثه مستلهمة من رضى الرب ورحمته. أى أنهم كانوا لا يزالون قادرين على رؤية اتساق عقلانيتهم العلمية مع الرؤية الدينية، وتكامل منطق العقل مع منطق الروح.

ومع ذلك فإن كوبرنيكوس قد أحدث ثورة جعلت من المحال على البشر أن يروا أنفسهم فى الصورة القديمة نفسها أو أن يثقوا فى مدركاتهم الحسية بالأسلوب القديم نفسه. فحتى ذلك العهد كان الناس يشعرون أنهم قادرون على الاستناد إلى الأدلة القائمة على حواسهم فقط، وتغلغلت بصائرهم فتخطت المظاهر الخارجية

للعالم فأدركوا الغيب، ولكنهم كانوا مقتنعين بأن هذه المظاهر الخارجية تتفق مع حقيقة ما وتمثلها. وكانت القصص والرموز القائمة على منطق الروح والتى ابتدعها الناس للتعبير عن رؤيتهم للقوانين الأساسية للحياة تتطابق مع ما خبروه باعتباره واقعًا حقيقيًا. فالعابدون اليونانيون فى إليوسيس كانوا يستطيعون صهر قصة بيرسيفونى مع إيقاعات الحياة التى تتجلى فى مواسم الحصاد، وهى التى كانوا يرونها رأى العين، وكذلك كان العرب حين يهرولون حول الكعبة يربطون أنفسهم ربطًا رمزيًا بحركة الكواكب حول الأرض ومن ثم يستشعرون تناغمهم مع المبادئ الأساسية للوجود. ولكن بذرة من بذور الشك قد بُذرت بعد أن أتى كوبرنيكوس، إذ ثبت أن الأرض، التى كانت فيما يبدو ثابتة، تتحرك فى الواقع بسرعة كبيرة جدًا، وأن الكواكب كانت ذات حركة ظاهرية فقط لأن الناس كانوا يسقطون رؤيتهم عليها، أى إن الذى كان يفترض أنه حقيقة موضوعية كان فى الواقع مسألة ذاتية محضة. فلم يعد العقل ومنطق الروح متناغمين، بل إن تكثيف منطق العقل على أيدى العلماء كان فيما يبدو ينتقص من قيمة المدركات الحسية للبشر العاديين ويدفعهم باطراد إلى الاعتماد على خبراء العلم الطبيعى. فإذا كان منطق الروح قد بيّن أن الجهد البشرى مرتبط بالمعنى الأساسى للحياة، فإن العلم الجديد قد دفع الناس فجأة إلى موقع هامشى فى الكون، فلم يعودوا قائمين فى مركز الأشياء، بل هم ينجرفون على ظهر كوكب غير متميز فى كون لم يعد يدور حول احتياجاتهم. وكانت تلك رؤية قاتمة جهمة، وربما كانت فى حاجة إلى منطق الروح حتى تصبح العلوم الكونية ذات معنى روحى موازٍ لمعنى العلوم القديمة.

ولكن العلم الحديث كان قد بدأ يطعن فى صحة منطق الروح، إذ تمكن العالم البريطانى اسحاق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) من تجميع ما انتهى إليه أسلافه عن طريق الاستخدام الدقيق للمناهج العلمية الناشئة وهى التجريب والاستنباط، فقدم نيوتن فكرة الجاذبية باعتبارها القوة العالمية التى تشد الكون كله بعضه إلى بعض وتمنع الأجرام السماوية من الاصطدام بعضها بالبعض. وقد أعرب عن اقتناعه بأن هذا النظام يثبت وجود الله، فهو الصانع الأعظم، ما دام التصميم الهندسى المعقد للكون من المحال أن يوجد بالمصادفة. وكان نيوتن يعتقد، مثل غيره من أوائل العلماء المحدثين، أنه قد أتى للبشرية بمعلومات مؤكدة ويقينية عن العالم،

وكان واثقًا أن نظامه يتفق تمامًا مع الحقيقة الموضوعية وأنه قد خطا بالمعرفة الإنسانية خطوة جديدة إلى الأمام. ولكن انغماس نيوتن الكامل في عالم منطق العقل جعل من المحال عليه أن يدرك وجود أشكال أخرى من الإدراك، تعتمد بصورة أكبر على الحدس، وقد تستطيع أن توفر للبشر أيضًا شكلاً من أشكال الحقيقة. فكان ينظر إلى قصص منطق الروح ورموز الأسرار نظرته إلى طرائق الفكر البدائية بل والهمجية، وكتب ذات مرة بنبرات تنم عن ضيق الصدر قائلاً "هناك قسم من أبناء البشر يتسمون بالحماس والإيمان بالخرافات، ويدفعهم طبعهم في شئون الدين إلى الولع دائمًا بالألغاز والأسرار، ولذلك فأكثر ما يحبونه هو أقل ما يفهمونه".

وأصبحت الرغبة في "تطهير" المسيحية من عقائد منطق الروح تكاد تتسلط على نيوتن، إذ بات مقتنعًا بأن العقائد التي لا صلة لها بالعقل مثل التثليث والحلول (التجسيد) كانت نتيجة التآمر والتزوير والمخاتلة. وأثناء عمله في كتابه العظيم مبادئ الفلسفة الطبيعية (١٦٨٧) بدأ يعمل في كتابة بحث غريب اسمه الأصول الفلسفية للاهوت الأمميين يقول فيه إن نوحًا عليه السلام أرسى دعائم دين خال من الخرافات، لم يكن يتضمن كتبًا منزلة، ولا ألغازًا وأسرارًا، بل ينص على وجود إله يمكن التوصل إلى معرفته عن طريق التأمل العقلاني للعالم الطبيعي، وإن الأجيال اللاحقة قد حرفت ذلك الدين النقي، فقام رجال اللاهوت الذين لا وازع لهم من ضمير بإضافة العقائد الزائفة الخاصة بالحلول (التجسيد) والتثليث في القرن الرابع، بل إن سفر الرؤيا قد تنبأ بظهور مذهب التثليث - "ذلك الدين الغريب للغرب"، "والاعتقاد بوجود ثلاثة آلهة متساوية" - باعتباره من أرجاس الوحشة والهم. وكان نيوتن لا يزال رجلاً متدينًا، ولا يزال - إلى حد ما - عبدًا للروح المحافظة في بحثه عن دين أزلي قديم وعقلاني، ولكنه لم يستطع التعبير عن إيمانه بنفس أسلوب الأجيال السابقة، ولم يستطع أن يدرك أن مذهب التثليث قد ابتكره رجال اللاهوت اليونان الأرثوذوكس في القرن الرابع باعتباره صيغة روحية، على وجه الدقة، تماثل الصيغة الروحية التي ابتكرها القبّاليون اليهود فيما بعد. وعلى نحو ما أوضحه جريجوري النيساوي، لم يكن القول بالأقانيم الثلاثة، أي الأب والابن والروح القدس، يشير إلى حقائق موضوعية، بل هي "ألفاظ نستخدمها" للتعبير عن الطريقة التي تتكيّف بها الطبيعة الإلهية التي "تستعصي

على التسمية والتعبير" مع الأبعاد القاصرة والمحدودة لأذهاننا البشرية. فلا معنى لها خارج سياق العقيدة المتمثل فى الصلاة والتأمل وشعائر العبادة. ولكن نيوتن لم يكن قادراً على النظر إلى التثليث إلا من الزاوية العقلانية، ولم يكن يستطيع أن يتفهم الدور المنوط بمنطق الروح، ومن ثم اضطر إلى طرح ذلك المذهب ظهرياً. والصعوبة التى يصادفها كثير من المسيحيين الغربيين اليوم فى مواجهة لاهوت التثليث تدل على أنهم كانوا يشاركون نيوتن انحيازه للعقل. ولا شك أننا نستطيع أن نفهم موقف نيوتن تمام الفهم، فلقد كان من أوائل أبناء الغرب الذين قُدّر لهم أن يتمكنوا تماماً من مناهج ونظم العقلانية العلمية، وكان إنجازه فى هذا الصدد سامقاً شامخاً، وكانت النتيجة تأخذ بمجامع القلوب مثل أى إحساس دينى. وكان يهتف أثناء دراساته قائلاً: "يا إلهى! إننى أفكر فأجد أفكارى صدى لأفكارك!" فلم يكن لديه وقت ينفقه - حرفياً - فى الوعى الصوفى أو الحدسى، والذى كان يمكن أن يعوق فعلاً تقدمه العلمى. وهكذا أصبح منطق العقل ومنطق الروح لأول مرة فى تاريخ البشرية متعارضين بسبب عمق هذه التجربة الغربية ونجاحها البراق.

وما أن حل القرن السابع عشر حتى كان التقدم قد رسخ وتأكد إلى الحد الذى دفع الكثيرين من الأوروبيين إلى اعتناق النظرة المستقبلية اعتناقاً كاملاً، وكانوا يكتشفون أن عليهم أن يكونوا على استعداد لشطب الماضى والبدء من جديد حتى يعثروا على الحقيقة. وكانت قوة الدفع المستقبلية المذكورة تتعارض تعارضاً صارخاً مع دعوة العودة إلى الماضى فى إطار منطق الروح، وهى التى كانت تعتبر أساس الروح المحافظة، فكان على العلم الجديد أن ينظر إلى المستقبل، فذلك هو أسلوب عمله، لا سواه، وكان إثبات صحة نظرية كوبرنيكوس معناه استحالة العودة إلى صورة الكون التى وضعها بطليموس، وحينما نبذ الأوروبيون فيما بعد 'نظام' نيوتن لم ينبذوا مناهجه، إذ كانوا ينشئون فكرة جديدة عن الحقيقة، وهى أن الحقيقة لم تكن ولا يمكن أن تكون مطلقةً فى يوم من الأيام، ما دامت الاكتشافات الجديدة قادرة دائماً على أن تحل محل الآراء القديمة، وأن الحقيقة لابد من إثباتها موضوعياً، وأن تُقاس بمدى فاعليتها فى دنيا الواقع العملى. وهكذا فإن نجاح العلم الحديث فى بواكير حياته منحه سلطة بدأت تقوى وتتفوق على قوة الحقيقة التى

يأتى بها منطق الروح، وهو الذى لا يحقق أى معيار من هذه المعايير.

وكان ذلك قد تجلى من قبل فى كتاب تقدم المعرفة (١٦٠٥) الذى كتبه فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) مستشار الملك جيمس الأول ملك انجلترا، إذ كان بيكون يؤكد أن جميع الحقائق، حتى أقدس العقائد الدينية، يجب أن تخضع للأساليب النقدية الصارمة للعلم التجريبى، فإذا كانت تتناقض مع الحقائق التى ثبتت صحتها والأدلة المستندة إلى حواسنا، فينبغى طرحها. وكان يقول إن نظرات الماضى الثاقبة مهما تكن لا ينبغى أن يُسمح لها بعرقلة الجهود المبذولة لخلق مستقبل جديد عظيم للبشرية، وإن المخترعات العلمية سوف تضع نهاية لشقاء الإنسان، وتبدأ هنا على ظهر الأرض مملكة الهناء 'الألفية' التى تنبأ بها الأنبياء. ونحن نشعر فى كتابات بيكون بفورة الحماس والإثارة التى جلبها العصر الجديد، ولقد بلغ من ثقته أنه لم يكن يرى أى تناقض بين الكتاب المقدس والعلم. وقبل إدانة جاليليو بسنوات طويلة كان فرانسيس بيكون يطالب بالحرية الفكرية الكاملة لرجال العلم، قائلاً إن أهمية عملهم للجنس البشرى أكبر من أن يعوقها السُذَج من رجال الدين، وكان كتاب تقدم المعرفة بمثابة إعلان استقلال من جانب العقلانية العلمية، التى كانت تسعى للتحرر من منطق الروح وتعلن أنها وحدها القادرة على فتح باب الحقيقة أمام البشر.

كانت تلك لحظة مهمة، تميزت فيها بداية العلم بالمفهوم الذى نعرفه فى الغرب الحديث، فحتى تلك اللحظة كانت الاستكشافات العلمية والعقلانية تدور دائماً فى إطار شامل من منطق الروح الذى كان قد فسّر معنى كل ما اكتشف، وكان منطق الروح السائد يتحكم فى تلك البحوث ويقيّد من تطبيقاتها، وفقًا للحدود التى كان المجتمع المحافظ يطلبها. ولكن العلماء الأوروبيين كانوا قد بدأوا فى القرن السابع عشر تحرير أنفسهم من هذه القيود القديمة، إذ لم تعد للناس بها حاجة، بعد أن بدأ التغلب تدريجيًا على العوامل التى كانت تتسبب فى تخلف المجتمعات الزراعية. وكان بيكون يؤكد أن العلم وحده هو الصحيح، ولا شك أن نظرته للعلم كانت تختلف اختلافًا شاسعًا عن نظرتنا إليه، فالمنهج العلمى فى نظر بيكون كان ينحصر تقريبًا فى جمع الحقائق، إذ لم يكن يقدر أهمية التخمين

والافتراض في البحث العلمي، ولكن تعريف بيكون للحقيقة أصبح ذا تأثير بالغ خصوصًا في البلدان الناطقة بالانجليزية. فكان يؤمن بأن النوع الوحيد من المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها باطمئنان هي التي نستقيها بحواسنا وما عداها وهم محض، ومن ثم طرح الفلسفة والميتافيزيقا واللاهوت والفن والخيال والتصوف والأساطير باعتبارها لا صلة لها بحياتنا وبصفتها خرافات - ذلك لأنها تستعصي على الإثبات التجريبي.

وكان على الذين يشاركونه ذلك الأسلوب العقلاني المحض ويريدون في الوقت نفسه أن يواصلوا إيمانهم الديني ، أن يبحثوا عن طرائق جديدة للتفكير فيما يتعلق بالرب وبالروحانية، وهكذا رأينا موت المنهج القائم على منطق الروح في فلسفة العالم الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) الذي لم يكن قادرًا على الحديث إلا بمفردات منطق العقل. واتسمت رؤيته بالعزلة والوحشة، فكان يرى أن العالم آلة لا حياة فيها، وأن العالم المادي خامد ميت، لا يستطيع أن يمنحنا أي معلومات عن الألوهية، وكان ديكارت يرى أن الشيء الحيّ الوحيد في الكون هو عقل الإنسان، وهو لا يستطيع أن يصل إلى اليقين إلا بالنظر في داخله، وأن الإنسان لا يستطيع التأكد من وجود أي شيء آخر إلى جانب شكوكه وأفكاره. وكان ديكارت كاثوليكيا مخلصًا فأراد أن يقنع نفسه بوجود الإله دون أن يرجع إلى الماضي الأزلي والخيالي الحافل بالعبادات ومنطق الروح ولم يستطع أيضًا أن يستند إلى رؤى الأنبياء والنصوص المقدسة. والواقع أن ديكارت كان ينتمي إلى العصر الجديد ولم يكن على استعداد لقبول الأفكار الشائعة، وكان يقول إن على العالم أن يجعل ذهنه لوحًا خاليًا من كل قديم، فالحق الأوحد هو الذي تأتي به الرياضيات أو تأتي به بعض الأقوال المأثورة مثل قولك "لا بُدَّ مما ليس منه بُدّ" فذلك يتسم بصحة لا يمكن نقضها، ولما كان طريق العودة مغلقًا، لم يكن أمام ديكارت إلا أن يخطو بعناء وبطء إلى الأمام.

وذات مساء وضع ديكارت المقولة التي ذهبت مثلاً، وهو جالس بجوار موقد خشبي، ألا وهي "أنا أفكر إذن أنا موجود" وكان يعتقد أن هذه بديهية، أي إننا لا نستطيع التأكد إلا من مكابدة أذهاننا للشك، ولكن ذلك يكشف عن قصور العقل

البشرى، أو أنه محدود، وإن كانت فكرة "المحدود" ذاتها لن يكون لها معنى إلا إذا كان لدينا مفهوم سابق "للكمال". فإذا قيل إن الكمال غير موجود كان ذلك تناقضًا، ومن ثم فلابد من الإقرار بوجود الكمال النهائى - أى الإله - وحقيقته. ومن المستبعد أن يقتنع غير المؤمن من أبناء العصر الحديث بما يسميه ديكارت إثباتًا لوجود الله، مما يدل على عجز العقل الخالص حين يواجه مثل هذه القضايا. فالفكر العقلانى لا غنى عنه للنجاح فى أداء وظائف هذه الدنيا، أى إنه يبلغ أفضل مراتبه حين نوجهه لتحقيق غاية براجماتيه، أو حين نبتعد مثل ديكارت عن الأمور الدنيوية لتأمل شىء ما بأقصى درجة ممكنة من الموضوعية، ولكننا حين نسأل عن سبب وجود الدنيا (إذا كانت موجودة !) أو إذا كان للحياة معنى، فلن يستطيع العقل أن يحرز تقدمًا كبيرًا، وعندها يصبح موضوع تفكيرنا نفسه غريبًا عنّا، والحق إن ديكارت، إلى جوار موقده، فى عالمه البارد الخالى ، حبيس شكه الخاص، وبما أتى به من "إثبات" لا يزيد عن كونه لُغزًا أو أُحجية ذهنية، يجسد المعضلة الروحية للإنسان الحديث.

وهكذا، ففى الوقت الذى كان العلم والعقلانية الطليقة يحرزان تقدمًا باهرًا، كانت الحياة تفقد معناها لأعداد متزايدة من الناس وجدوا أنفسهم مضطرين، لأول مرة فى تاريخ البشرية، إلى أن يعيشوا دون منطق الروح. وكان الفيلسوف البريطانى توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) يعتقد بأن الله موجود، ولكنه كان يرى أن ذلك الوجود لا صلة له بالأغراض العملية، أى إنه كان يشارك لوثر رأيه بأن العالم المادى خال من الألوهية، إذ كان هوبز يعتقد أن الله قد كشف عن نفسه فى فجر التاريخ البشرى وأنه سيفعل ذلك ثانيًا فى نهايته. ولكن على البشر أن يعيشوا بلا إله حتى يحين ذلك الموعد، فكأنما ينتظرون فى الظلام. وكان عالم الرياضيات الفرنسى بليز باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) رجلاً عميق الإيمان بالدين، فكان يعتقد أن ما كشف عنه العلم الحديث من خواء العالم اللامتناهى ومن "الصمت السرمدى" فيه، يلقى فى القلب رُعبًا خالصًا :

عندما أبصر حال الإنسان المتسمة بالعمى والشقاء، وعندما تجوس عينى خلال الكون كله بمواته، وأرى الإنسان وحيدًا دون ضوء يهديه، كأنما هو تائه فى هذا

الركن من الكون، لا يعرف من وضعه فيه، وما عليه أن يفعل، وماذا يكون من أمره عندما يموت، عاجزاً عن معرفة أى شيء، فإننى أشعر بالهلع يجتاحنى، مثل رجل ينتقل فى منامه إلى جزيرة صحراوية مخيفة، ويصحو ليجد نفسه فى تيه كامل، بلا وسيلة تمكنه من الفرار. وعندها أعجب لأن تلك الحال من الشقاء لا تدفع الناس إلى اليأس.

كان العقل والمنطق الذهنى يعملان على تحسين أحوال البشر فى العالم الحديث بألف طريقة وطريقة فى دنيا الواقع العملى ، ولكنهما كانا عاجزين عن التصدى للأسئلة القصوى التى يبدو أن على الإنسان أن يسألها، بطبيعته، والتى كانت حتى تلك اللحظة من اختصاص منطق الروح. وهكذا أصبح اليأس والاغتراب، على نحو ما وصفهما باسكال، جزءاً من تجربة الحداثة.

ولكن ذلك لم يكن يسرى على الجميع، إذ إن جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) الذى كان من أوائل من فتحوا باب التنوير الفلسفى فى القرن الثامن عشر، لم يكابد أى لون من القلق الوجودى الذى أضنى باسكال. فكان إيمانه بالحياة وبعقل الإنسان إيماناً يتسم بالاتزان والثقة. ولم تكن تساوره أى شكوك فى وجود الإله، وإن كان يدرك، إن شئنا الدقة، أن الاختبار العملى الذى وضعه بيكون لم ينجح فى إثبات حقيقة الإله التى تتخطى خبراتنا الحسية. وكان الدين لدى لوك يقوم بأكمله على العقل، ويشبه الإيمان بالإله دون كتبه ورسله عند بعض "المارانو" اليهود، فكان على اقتناع تام بأن العالم الطبيعى حافل بالأدلة على وجود خالق وأننا إذا سمحنا للعقل بأن يسطع وينشر أنواره دون قيود، فسوف يكتشف الحقيقة كُلُّ فرد بنفسه، وبأن الأفكار الزائفة والخرافية لم تتسلل إلى العالم إلاّ لأن القساوسة استخدموا وسائل تتسم بالقسوة والطغيان، مثل محاكم التفتيش، لإرغام الناس على تقبل ما يرونه صحيحاً، وبأن الإخلاص للدين الحقيقى يقتضى أن تسمح الدولة بشتى ألوان العقائد، وأن تشغل نفسها فقط بالخطوات العملية لإدارة المجتمع وحكمه، وبأن الكنيسة يجب أن تنفصل عن الدولة، دون أن تتدخل إحداهما فى عمل الأخرى. أى إن ذلك كان عصر العقل، وكان لوك يعتقد، لأول مرة فى تاريخ البشرية، أن الناس سوف يتحررون وأنهم سوف يستطيعون من ثم

إدراك الحقيقة.

وقد حددت هذه الرؤية الخيّرة نغمة التنوير والمثال الذى ألهم الناس بعد ذلك، أى مثال الدولة الحديثة العلمانية المتسامحة. وشارك فلاسفة التنوير الفرنسيون والألمان أيضًا فى الدين العقلانى - أى الإيمان بالإله دون كتبه ورُسله، وكانوا يرون أن الأديان المنزلة القديمة القائمة على منطق الروح أديان عفى عليها الزمن. وكانوا يقولون إنه لما كان العقل هو المعيار الأوحد للحقيقة، فإن الأديان القديمة القائمة على ما أسموه فكرة "التنزيل" الخيالية، لم تكن تزيد عن صور ساذجة لهذا الدين الطبيعى ويجب من ثم نبذها. وكان عالم اللاهوت البريطانى الثورى ماثيو تندال (١٦٥٥ - ١٧٣٣) يقول بأن الدين يجب أن يكون عقلانيًا، مثلما قال بذلك جون تولاند (١٦٧٠ - ١٧٢٢) الأيرلندى الذى تحوّل من الكاثوليكية إلى الإيمان بالإله دون كتبه ورسله، قائلاً إن العقل الطبيعى هو الأداة الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها فى التوصل إلى الحقيقة المقدسة، وإنه يجب تطهير المسيحية من الأسرار والغوامض والخوارق، وإن "التنزيل" لا لزوم له ما دام فى مقدور كل إنسان أن يصل إلى الحقيقة عن طريق طاقاته العقلية وحدها. وكانوا يقولون إن تأمل هندسة الكون المادى، على نحو ما بيّن نيوتن، تقدم أدلة لا يمكن دحضها على وجود خالق وسبب أول. أما فى القارة الأوروبية فكان المؤرخ الألمانى هيرمان صمويل رايماروس (١٦٩٤ - ١٧٦٨) يقول إن عيسى عليه السلام لم يزعم يومًا ما أنه إلهى، وإن طموحاته كانت كلها سياسية، وإننا يجب أن نبجل عيسى عليه السلام باعتباره مُعلمًا عظيمًا، ومؤسسًا "لدين رائع وبسيط ورفيع وعملى".

كانت الحقائق القديمة التى أتى بها منطق الروح تتعرض للتفسير آنذاك باعتبارها من ثمار منطق العقل، وهو من التطورات الجديدة تمامًا، والتى كتب عليها أن تكون مخيبة للآمال آخر الأمر.

فبينما كان هؤلاء الفلاسفة وعلماء اللاهوت والمؤرخون يعلنون سيادة العقل وتفوقه، جاء العقلانى الألمانى عمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فعرض ما ينافس به مشروع التنوير برمته ويزاحمه. فمن ناحية، أصدر كانط إعلان استقلال آخر مثل ما سبق إصداره فى أوائل العصر الحديث، قائلاً إن على الناس أن يتسلحوا

بالشجاعة الكافية للتخلص من اعتمادهم على المعلمين والكنائس والسلطات، وأن ينشدوا الحقيقة بأنفسهم، فكتب يقول "إن التنوير هو خروج الإنسان من الوصاية التي جلبها لنفسه. والوصاية معناها عجز الإنسان عن الانتفاع بقدرته على الفهم دون توجيه من شخص آخر". ولكنه، من ناحية أخرى قال في كتابه نقد العقل الخالص (١٧٨١) إنه من المحال على الإنسان أن يتأكد من أن النظام الذى نتصور أننا نبصره في الطبيعة له علاقة مهما تكن بالواقع الخارجي، أى إن ذلك "النظام" لا يزيد عن كونه شيئًا خلقناه بعقولنا، بل إن قوانين نيوتن التي نعتبرها علمية قد تفصح عن حقائق نفسية أكثر مما تفصح عن حقائق كونية، فالعقل حين يتلقى معلومات عن العالم المادى الذى يقع خارجه، عن طريق الحواس، لابد له من إعادة تنظيم هذه المعلومات وفقًا لهياكله الداخلية حتى يدرك معناها. وكان كانط واثقًا كل الثقة في قدرة العقل على ابتكار رؤية عقلانية ناجحة بنفسه، ولكنه عندما بيّن أنه من المحال فعلاً على الإنسان أن يفلت من قيود ذاته، كان يوضّح أيضًا أنه لا وجود لشيء اسمه الحقيقة المطلقة، أى إن جميع أفكارنا ذاتية وقائمة على التفسير، فإذا كان ديكارت قد رأى عقل الإنسان في صورة الكائن الأوحد الذى يقيم في عزلة في عالم ميت، فقد قطع كانط الرابطة التي كانت تربط الإنسان بالعالم قطعًا كاملاً وحبسنا في رؤوسنا كما أنه كان في الوقت الذى يحرر فيه الإنسانية من الوصاية، يغلق عليها أبواب سجن جديد، وعلى نحو ما تكرر كثيرًا، كانت الحداثة تأخذ بإحدى يديها ما تقدمه بالأخرى، فالعقل يأتي بالتنوير والتحرير، ولكنه يستطيع أيضًا أن يعزل الناس عن العالم الذى كانوا يتعلمون كيف ينجحون في التحكم فيه.

فإذا لم تكن هناك حقيقة مطلقة، فماذا كان من أمر الإيمان بالإله ؟ كان كانط يختلف عن سائر المؤمنين بالإله دون كتبه ورسله في اعتقاده باستحالة إثبات وجود الله، لأن الإله لا يمكن أن تدركه الحواس، وهو من ثم خارج نطاق العقل البشرى. فالعقل لا يملك القطع بشيء حين يواجه - وحده - ذلك المطلق. وكان العزاء الوحيد الذى يقدمه كانط هو، بنفس المنطق، استحالة إثبات عدم وجود الإله. وكان كانط نفسه رجلاً ورعا. ولم يكن يعتبر أن أفكاره مضادة للدين، واتجه تفكيره إلى أنها سوف تحرر الإيمان من الاعتماد الكامل وغير الصحيح على العقل،

فكتب في ذيل كتابه نقد العقل العملي (١٧٨٨) أنه مقتنع اقتناعًا راسخًا بالقانون الأخلاقي المنقوش داخل كتاب كل إنسان، وكان ذلك القانون، مثل جلال السماوات يفعم قلبه بالرهبة والدهشة، وأما الأسس العقلانية الوحيدة التي تمكن من العثور عليها للإيمان بالله دون كتبه ورسله فكانت تنحصر في الحجة المشكوك في صحتها وهي أنه إذا لم يكن مثل هذا الإله موجودًا، ولم تكن هناك إمكانية حياة أخرى فسوف يصعب علينا أن نفهم ضرورة الالتزام بالسلوك الخلقي. وذلك أيضًا ليس بالإثبات المقنع. أي إن الإله عند كانط كان بمثابة حاشية أضيفت إلى حال الإنسان وحسب، أي إننا إذا استبعدنا الاقتناع الفطري في أعماقنا، فلن نجد سببًا حقيقيًا للإيمان عند العقلانيين. ولما كان كانط يؤمن بالإله دون كتبه ورسله، ويؤمن بالعقل، فلم يجد ما يبرر استعانته بأي من الرموز التقليدية أو الممارسات المأثورة التي كانت تعين الناس في الماضي دون غيرها على استشعار القداسة، بغض النظر عن العقل، وكان كانط يعارض معارضة عميقة فكرة القانون الإلهي الذي كان يمثل له إنكارًا همجيًا لاستقلال الإنسان، ولم يكن قادرًا على أن يرى أي فائدة في التصوف أو الصلوات أو الطقوس. فدون العبادة سوف تصبح أي فكرة عن الدين والألوهية فكرة هشة لا لزوم لها بل ولا يمكن ترسيخها.

ومن المفارقات العجيبة أن ظهور العقل باعتباره المعيار الأوحد للحقيقة في الغرب تزامن مع انفجار الهوس الديني، فكان ما يسمى 'بجنون الساحرات' العظيم في القرنين السادس عشر والسابع عشر، الذي اجتاح كثيرًا من البلدان البروتستانتية والكاثوليكية في أوروبا بل وظهر لفترة قصيرة في المستعمرات الأمريكية، والذي كان يدل على أن تنمية العقلانية العلمية لا تكفل دائمًا تحاشي ظهور قوى الظلام وانتشارها. فلقد تعلّم الناس من التصوف ومن منطق الروح أن يتعاملوا مع عالم اللاوعي، وربما لم يكن من قبيل الأحداث العارضة أن يفلت العقل الباطن من عقاله وينطلق جامحًا جائحًا في الوقت الذي بدأ الإيمان الديني يتخلى عن ذلك اللون من ألوان الروحانية. فقد وُصف 'جنون الساحرات' بأنه ضرب من ضروب الوهم الجماعي الذي أصاب الرجال والنساء والقضاة الذين حاكموهم في شتى أنحاء العالم المسيحي، فكان الناس يعتقدون أنهم قد ضاجعوا العفاريت، وطاروا في الهواء ليلاً للمشاركة في طقوس شيطانية وحفلات التذاذ

شاذة، وكان المعتقد أن الساحرات يعبدن الشيطان بدلاً من الإله، في محاكاة معكوسة للقداس - وهو الانعكاس أو الارتكاس الذي ربما كان يمثل، على مستوى اللاوعي، انتشار التمرد على الصورة التقليدية للدين، إذ بدأ الناس يرون أن الإله قد ابتعد عنهم واغترب وزادت مطالبه إلى الحد الذي جعل البعض يضفي عليه سمات الشيطان، والواقع هو أن المخاوف والرغبات اللاشعورية قد أسقطها البعض على الصورة المتخيلة لإبليس، حتى ظهر في هيئة بشرية شائهة وحشية. وأدين الآلاف من الرجال والنساء بتهمة ممارسة السحر وكانوا يشنقون أو يحرقون علناً قبل أن تنطفئ نيران ذلك الجنون. وكانت العقلانية العلمية الجديدة التي لم تأخذ في اعتبارها هذه المستويات العميقة من عقل الإنسان، عاجزة عن التحكم في انفجار تلك اللوثة الهستيرية. وهكذا كانت تجربة الحداثة تضم تياراً هائلاً مخيفاً ومدمراً يتمثل في نقض العقل أو في نقيضه.

كانت تلك فترة رهيبة ومرعبة للناس في الغرب على جانبي المحيط الأطلسي. فلقد كان الإصلاح الديني يمثل لحظة قطيعة مخيفة. قسمت أوروبا إلى معسكرات تضمر أخبث ضروب العداء لبعضها البعض، فالبروتستانت والكاثوليك يضطهدون بعضهم بعضاً في انجلترا، كما اندلعت حرب أهلية في فرنسا بين البروتستانت والكاثوليك (١٥٦٢ - ١٥٦٣) ووقعت مذبحة في طول البلاد وعرضها للبروتستانت في عام ١٨٧٢. وكانت حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) قد خربت أوروبا، وهي تلقى بالأمم الأوروبية، الواحدة تلو الأخرى، في خضم الصراع حول السلطة، وكان من أبعاده بُعد ديني قوى شتت الأمل في إعادة توحيد أوروبا. وفي عام ١٦٤٢ نشبت الحرب الأهلية التي زلزلت كيان انجلترا، وأدت إلى إعدام الملك شارل الأول (١٦٤٠) وإنشاء جمهورية يرأسها أوليفر كرومويل، البرلماني البيوريتاني. وعندما عادت الملكية في عام ١٦٦٠، كان البرلمان قد حد من سلطات الملك. وظهرت المؤسسات التي تتسم بقدر أكبر من الديموقراطية في الغرب، فاجتازت طريقاً سفكت فيه الدماء وشهدت آلام المخاض المبرحة. وجاءت الثورة الفرنسية بكوارث أدهى وأمر في عام ١٧٨٩، إذ تلاها حكم الرعب، وحكم الدكتاتورية العسكرية، قبل أن يعود النظام على أيدي نابليون. وكانت تركة الثورة الفرنسية للعالم الحديث ذات وجهين، وجهٌ مشرقٌ

من مُثُل التنوير العليا وهي الحرية والإخاء والمساواة، ووجهٌ عابسٌ من ذكرى الإرهاب الذى مارسته الدولة، وكان تأثير الوجه الخبيث لا يقل قوة عن تأثير الوجه الطيب، كما اندلعت فى المستعمرات الأمريكية أيضًا حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) حيث نشب القتال بين بريطانيا وفرنسا حول ممتلكاتهما الامبراطورية، ودارت رحى المعارك على امتداد الساحل الشرقى لأمريكا، وسقطت أعداد هائلة من الضحايا، وما لبث أن أدى ذلك إلى حرب الاستقلال (١٧٧٥ - ١٧٨٣) وإنشاء أول جمهورية علمانية فى العالم الحديث. وكان الغرب يشهد نشأة نظام اجتماعى أكثر عدالة وتسامحًا، وإن كان ذلك لم يتحقق إلا بعد ما يقرب من قرنين من العنف.

وفى خضم تلك القلقلة لجأ الناس إلى الدين، ووجد بعضهم أن الأشكال القديمة للعقيدة لم تعد قادرة على النجاح فى هذه الظروف الجديدة، فحاولت بعض الحركات المعارضة، الشبيهة بالثورة "الشابتية" الأخيرة فى اليهودية، قطع الصلة مع الماضى والتوصل دون اتساق إلى شىء جديد. فكان "جاكوب بوتيوملى"، و"لورانس كلاركسون" (١٦١٥ - ١٦٦٧) يعملان بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها فى انجلترا فى القرن السابع عشر، على الدعوة إلى الإخاء الوليد، إذ قال "بوتيوملى" فى كتاب أصدره عام ١٦٥٠ بعنوان الجانب المضئ والجانب المعتم للإله إنه من الوثنية تصور وجود إله بعيد منعزل، فالإله قد تجسد فى رجال غير يسوع، والألوهية موجودة فى جميع الأشياء، حتى فى الخطيئة، وكان كلاركسون يقول فى كتابه العين الفريدة إن الخطيئة وهم بشرى فحسب، والشر من تجليات الإله. وكان "أبيزركوب" (١٦١٩ - ١٦٧٢) المعمدانى الثورى، يقترف المحظورات الجنسية بصورة صارخة ويمطر اللعنات علنًا، وكان يعتقد أن المسيح - الذى كان يسميه "داعية المساواة الأكبر" - سوف يعود عما قريب فيكتسح هذا النظام المتعفن والمنافق ويخلص العالم منه. وكانت المعارضة قائمة أيضًا فى مستعمرات نيو انجلاند بأمريكا الشمالية، إذ وصل "جون كوتون" (١٥٨٥ - ١٦٥٢) إلى "ماساتشوستس" فى عام ١٦٣٥، وكان واعظًا بيوريتانيًا محبوبًا، فأخذ يقول بأنه لا جدوى من الأعمال الصالحة. ولا فائدة من الحياة الطيبة، فالرب سوف ينقذنا دون الحاجة إلى هذه القواعد التى وضعها

البشر. أما تلميذته "آن هتشنسون" (١٥٩٠ - ١٦٤٣) فقد زعمت أنها تلقت الوحي شخصيًا من الرب ولم تعد تشعر بالحاجة إلى قراءة الكتاب المقدس أو القيام بالأعمال الصالحة. وربما كان هؤلاء المتمردون يحاولون التعبير عن إحساس لم يكتمل لديهم بأن القيود القديمة لم تعد تصلح للعالم الجديد، حيث تشهد الحياة تغييرًا أساسيًا بل جذريًا. وكان من المحتوم في فترة التجديد المستمر، أن يحاول البعض تحقيق الاستقلال والتجديد في الدين والأخلاق أيضًا.

وحاول آخرون التعبير عن المثل العليا للعصر الجديد بأسلوب ديني، فكان "جورج فوكس" (١٦٢٤ - ١٦٩١) مؤسس جمعية الأصدقاء، يدعو إلى حركة تنويرية لا تختلف عما وصفه "كانط" في وقت لاحق. وكان أتباعه يسمون 'الكوكريين' (تعريب لكلمة كويكر التي تعني من يرتجف لذكر الرب)، وكان يقول لهم إنهم يجب أن ينشدوا النور داخل قلوبهم نفسها، ويعلمهم أن "ينتفعوا بقدرتهم على الفهم دون توجيه من غيرهم" وكان يعتقد أن على الدين، في عصر العلم الحالي، أن يصبح "تجريبيًا"، أي أن يعتمد إثباتُ صحته لا على مؤسسة ذات سلطة قاطعة بل على الخبرة الشخصية. واعتنقت جمعية الأصدقاء المثل الأعلى الجديد للديموقراطية، قائلة إن جميع البشر سواسية، ولا ينبغي للكوكريين أن يرفعوا قبعاتهم لأحد، وإن غير المتعلمين من الرجال والنساء لا ينبغي أن يرجعوا إلى رجال الدين الحاصلين على درجات جامعية، بل عليهم أن يعبروا عن آرائهم الشخصية. وعلى غرار ذلك حاول "جون ويزلي" (١٧٠٣ - ١٧٩١) تطبيق المنهج العلمي والنظام العلمي على النشاط الروحي. وكان أتباعه يسمون "الميثوديين" (تعريب لكلمة ميثوديست التي تعني صاحب المنهج) وكانوا يتبعون نظامًا صارمًا من الصلوات وقراءة الكتاب المقدس، والصوم، وأعمال الخير والإحسان. وكان "ويزلي" يرحب، مثل "كانط"، بتحرير الإيمان من العقل، وكان يعلن أن الدين ليس عقيدة في الرأس بل ضوءًا في القلب، قائلاً إنه قد يكون من نعم الإله على الإنسان أن يجعل الأدلة العقلانية والتاريخية الخاصة بالمسيحية "تتوارى وتختلط وتتعثر" في السنوات الأخيرة، مما حرر الرجال والنساء وأرغمهم على "أن ينظروا في أنفسهم ويلتفتوا إلى النور الذي يسطع في

أفئدتهم".

وانقسم المسيحيون إلى فريقين، الأول يتبع الفلاسفة ويحاول تنقية إيمانه من الغموض وإضفاء العقلانية عليه، والثاني يتخلص من أثقال العقل برمته. وكان ذلك من التطورات الباعثة على القلق والتي برزت بصفة خاصة في المستعمرات الأمريكية. وكان من أصداء هذا الانقسام التي تأخر ظهورها نشوء الأصولية في الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر، أما في السنوات الأولى فكانت معظم المستعمرات، باستثناء ولايات نيو إنجلاند البيوريتانية، لا تبالي كثيراً بالدين، وبدا كأنما كانت المستعمرات قد أصبحت علمانية تماماً بحلول نهاية القرن السابع عشر. ولكن الطوائف البروتستانتية ازدهرت في مطلع القرن الثامن عشر واكتسبت الحياة المسيحية سمات شكلية كانت أوضح في العالم الجديد منها في العالم القديم. بل إن الطوائف المنشقة نفسها، مثل الكوكريين، والمعمدانيين، والمشيخيين، التي كانت ترفض جميعاً في البداية السلطة الكنسية وتصر على حقها في اتباع طرائقها الخاصة، قامت بعد ذلك بإنشاء جمعياتها في فيلادلفيا، وهي التي بدأت تراقب المجتمعات المحلية مراقبة دقيقة، وتشرف على رجال الدين، وتفحص أحوال الوُعّاظ، وتحارب البدع. وقد ازدهرت هذه الطوائف الثلاث جميعاً بسبب المركزية التي تمارس القهر على الرغم من نشاطها التحديثي، وازدادت أعداد المنضمين إليها زيادة كبيرة. وفي نفس الوقت أُنشئت كنيسةُ انجلترا في ولاية ماريلاند، وبنيت كنائس أنيقة رشيقة غيّرت من شكل الأفق في مدينة نيويورك، وبوسطن وتشارلزتون.

لكنه إذا كان الاتجاه قد بدأ لزيادة السيطرة وإحكام النظام، فلقد كان هناك اتجاه يقابله على مستوى القاعدة الشعبية، ويتميز بالرفض العنيف للقيود العقلانية المفروضة. فالديانة المحافظة كانت دائماً ترى التكامل قائماً بين منطق الروح ومنطق العقل، فهما يغنيان بعضهما البعض، وكان ذلك أيضاً هو الوضع في الأمور الدينية، حيث كان يسمح للعقل أن ينهض في حالات كثيراً بدور مهم على الرغم من أنه دور ثانوي. ولكن الاتجاه الجديد إلى تنحية العقل أو إسقاطه تماماً في بعض الحركات البروتستانتية الجديدة (وهو من التطورات التي يمكن إرجاعها

إلى لوثر) أدى إلى ظهور "لا عقلانية" تبعث على القلق. وكان الكوكريون قد أطلق عليهم ذلك الاسم لأنهم كانوا في الأيام الأولى يعبرون عن نشوتهم الدينية تعبيراً بالغ الحدة والعنف، إذ عرف عنهم أنهم كانوا يرتجفون، ويعولون ويصرخون حتى إن ضجيجهم - كما أشار إلى ذلك بعض من شاهدهم - جعل الكلاب تنبح، والأبقار تجرى وتنطلق هائمة، والخنازير تصدر قباعها. وأما البيوريتانيون، الكالفينيون الثوريون الذين بدأوا بمعارضة ما كانوا يعتبرونه "بابوية" كنيسة انجلترا، فقد كانت لهم أيضاً ممارساتهم الروحية الصاخبة المتطرفة. فكان من يتحول إلى عقيدتهم يعتبر "مولوداً جديداً" وكان مخاض ميلاده شاقاً عسيراً في أحيان كثيرة، إذ كان الكثيرون يكابدون آلاماً عميقة تجمع بين الإحساس بالذنب، والخاوف والشكوك التي تشل الإرادة، قبل الوصول إلى نقطة التحرر والانطلاق، وهي لحظة النعيم بالارتماء في أحضان الرب. وكان تحولهم يمنحهم طاقة عظيمة ويمكنهم من النهوض بأدوار رئيسية في مطلع عصر الحداثة، وكانوا من الرأسماليين الناجحين والعلماء المبدعين. ولكن آثار رضى الرب عنهم كانت أحياناً ما تزول فيتعرض البيوريتاني منهم لنكسة تلقى به في خضم اكتئاب مزمن، بل لقد بلغت حد الانتحار في عدد من الحالات.

لم يكن الدين المحافظ في العادة هستيرياً بهذه الصورة، إذ إن طقوسه وعباداته كانت ترمي إلى تحقيق التوافق بين الناس والواقع، ولا شك أن حالات السُكر بخمر الدين وجنون الانتشاء به كانت تحدث من وقت لآخر ولكنها كانت تقتصر على القلة ولا تصيب الغالبية أبداً. فلم يكن التصوف مذهباً موجهاً للجمهور، وكان في أفضل حالاته فردياً، حيث يخضع المتصوف لإشراف صاحب "الطريقة" فلا يقع في حالات نفسية مريضة، فالنزول إلى عالم اللاوعي كان يتطلب جهداً كبيراً وذكاءً وقاداً ونظاماً محكماً. فإذا لم يتوافر إشراف الخبير به، فكثيراً ما كان يؤدي إلى نتائج مؤسفة، على نحو ما رأينا عند القديسين المسيحيين في القرون الوسطى الذين اتسم سلوكهم بالجنون أو الانفلات التام، والذي نصفه اليوم بتعبير "العُصَاب"، والذي كان من ثمار غياب الإشراف الروحي اللازم، وهو ما يبين مغبة تنمية حالات نفسية بديلة دون انضباط أو إحكام، وما تؤدي إليه من أخطار. وكانت الإصلاحات التي دعت إليها تيريزا الأفيلية ويوحنا الصليب تهدف، على

وجد الدقة، إلى تصويب هذه الانحرافات. فإذا أقدم الناس على رحلات صوفية جماعية، فربما تدهورت طبيعتها وتحولت إلى هستيريا جماهيرية، أو إلى عدمية السبتيين، أو الاختلال النفسي لبعض البيوريتانيين.

وأصبحت المغالاة في الانفعال من سمات الحياة الدينية الأمريكية في القرن الثامن عشر، واتضحت وضوحًا شديدًا فيما يسمى بالصحوة الكبرى الأولى التي انفجرت في نورث هامتون، بولاية كونكتيكت عام ١٧٣٤ وسجل أحداثها قسيس كالفني علاَّمة يدعى "جوناثان إدواردز" (١٧٠٣ - ١٧٥٨). ويقول إدواردز إن الناس في هذه المدينة لم يكونوا متدينين تدينًا عميقًا، ولكن حدث في عام ١٧٣٤ أن توفي شابان فجأة فأحدثت وفاتهما صدمة (سرعان ما دعمها إدواردز بخطبه ومواعظه) فأغرقت البلدة في بحر من الهوس الديني، الذي انتشرت عدواه إلى ولاية ماساتشوستس ولونج أيلاند. فتوقف الناس عن العمل وأصبحوا يقضون النهار كله في قراءة الكتاب المقدس. وفي غضون ستة أشهر كان ثلاثمائة من أبناء البلدة قد مروا بتجربة التحول العنيف التي توصف "بالميلاد الجديد"، وتراوحت أحوالهم بين التحليق إلى أسمى الذُّرى والهبوط إلى الوهاد المدمرة، فكانوا يشعرون أحيانًا أنهم حُطِّموا تحطيمًا تامًا و"سقطوا في هوة لا قرار لها، وأنهم يحملون من الذنوب ما يرون أنه قد يستعصي على غفران الرب ورحمته"، وكانوا في أحيان أخرى "ينفجرون ضاحكين، ودموعهم تتدفق في نفس الوقت مثل الفيض الجارف، فتختلط بالبكاء الزاعق" وكانت تلك الصحوة على وشك الانتهاء عندما قام قس انجليزي يدعى "جورج هوايتفيلد" (١٧١٤ - ١٧٧٠) وكان من طائفة الميثوديين، بجولة في المستعمرات فأشعل نار صحوة جديدة، فكان يلقي الخطب والمواعظ فيغشى على الحاضرين ويبكون ويصرخون، وكانت الكنائس ترجّ بصيحات من يظنون أنهم نالوا الخلاص، وأنّات من ساء حظهم فباتوا على اقتناع بأنهم من أهل الجحيم. ولم يكن تأثير الرجل مقصورًا على السذج والجهلاء، بل إن "هوايتفيلد" حظي باستقبال حماسي ملتهب في جامعتي هارفارد ويل، وأنهى جولته في عام ١٧٤٠ بمؤتمر شعبي ديني عقد في الحديقة العامة في بوسطن، وألقى فيه موعظته على نحو ٣٠٠٠٠ شخص.

وقد بيّن إدواردز أخطار هذا اللون من الإنفعالية فى تسجيله لأحداث 'الصحوة'. فعندما خبت جذوة الحركة الإحيائية فى نورث هامتون، أُصيب رجل باكتئاب شديد دفعه إلى الانتحار، إذ رسخ فى نفسه الاعتقاد بأن فقدانه لنشوة الفرح لم يكن يعنى إلا أنه كُتب عليه دخول جهنم. وحدث فى بعض المدن الأخرى أيضًا أن "الكثيرين... كان يُوحَى إليهم بقوة، فيما يبدو، أو يُوعَزُ إليهم، كأنما يهتف بهم هاتف قائلاً: 'اذبحوا أنفسكم، فهذه فرصة مواتية. الآن!'" وأصيب شخصان بالجنون الذى تمثل فى أوهام حماسية غريبة ويؤكد "إدواردز" أن معظم الناس كانوا أشد هدوءًا وسكينة عما كانوا عليه قبل الصحوة، ولكن دفاعه عن الصحوة يبيّن مدى الخطورة الكامنة فى تصوير الدين فى صورة المسألة القلبية المحضة. إذ ما إن يرى الناس أن الإيمان 'لا عقلانى' فيتخففوا من القيود المتأصلة فى أفضل صور الروحانية المحافظة، حتى يصبح من المحتمل أن يقعوا فريسة لشتى ضروب الأوهام، فالشعائر التى تصاحب العبادة ذات بناء محكم يستهدف مساعدة الناس على اجتياز الصدمات النفسية والخروج منها أصحاء وفى عافية، على نحو ما اتضح فى طقوس القبّالة اللّورية، حيث كان يسمح للمتصوف أن يعبّر عن حزنه وشعوره بالهجر، ثم يُعان على الانتهاء من التهجد فرحًا مسرورًا. وعلى غرار ذلك كانت المواكب الشعبية للشيعة تكريمًا لذكرى الحسين تهيئ للناس فرصة للتعبير عن الإحباط والغضب، ولكن فى شكل شعائرى محكم، أى إنهم لم يكونوا فى العادة يطلقون العنان لمشاعرهم عمليًا بعد انتهاء الشعائر فينفسوا عن غضبهم مثلاً بالهجوم على الأغنياء وأصحاب السطوة. وأما فى نورث هامتون فلم تكن هناك طقوس عبادات محددة تساعد الناس على العبور، فكل شىء تلقائى ولا يخضع لأى نظام، وكان يُسمح للناس أن يعبّروا عن شتى ألوان مشاعرهم بل والانغماس فيها مما ألقى بالبعض إلى التهلكة.

ومع ذلك فقد كان "إدواردز" مقتنعًا بأن الصحوة كانت من صنع الإله، إذ كشفت أن عصرًا جديدًا قد أشرق نوره فى أمريكا وأنه سوف يسطع فى سائر أرجاء المعمورة. وكان إدواردز مقتنعًا بأن المسيحيين يستطيعون التوسل بأمثال هذه الصحوات لإقامة مملكة الرب على الأرض، وبأن المجتمع عندها سوف تتجلى فيه

حقيقة الرب وعدالته. ولم تكن الصحوة تضم أى عناصر سياسية ثورية، فلم يكن "إدواردز" و"هوايتفيلد" يحثان الجمهور على التمرد على الحكم البريطانى، أو على النضال فى سبيل إنشاء حكومة ديموقراطية، أو المطالبة بتوزيع الثروة توزيعًا عادلاً، ولكن التجربة قد ساعدت فعلاً على تمهيد الطريق للثورة الأمريكية، فالواقع أن النشوة التى استشعرها كثير من الأمريكيين حملت إليهم ذكرى نعيم "الحرية"، بعد أن عجزوا تمامًا عن قبول المثل العليا التى وضعها القادة الثوريون والتى كانت تقوم على التنوير المستند إلى الإيمان بالرب دون كتبه ورسله، وكانت كلمة الحرية تستخدم كثيرًا فى وصف فرح التحوّل، والتحرر من آلام الحياة المعتادة وأحزانها. وكان "هوايتفيلد" و"إدواردز" يشجعان جماهير المصلّين على اعتبار إيمانهم "الانتشائى" أرقى وأفضل من إيمان النخبة الذين لم "يولدوا من جديد" وكانوا ينظرون إلى هوسهم باحتقار عقلانى. وكان الكثيرون الذين يذكرون كبرياء رجال الدين وصلفهم وهم يدينون حركة الإحياء، يشعرون بانعدام الثقة فى سلطة المؤسسات التى كانت قد أصبحت جزءًا من التجربة المسيحية لكثير من الكالفينيين الأمريكيين. وهكذا كانت الصحوة أول حركة جماهيرية فى التاريخ الأمريكى، إذ أتاحت للناس تجربة مثيرة وهى المشاركة فى الأحداث التى هزت العالم هزًا، بل وكانوا يعتقدون أنها سوف تحول مجرى التاريخ.

ولكن الصحوة أيضًا قسمت الطوائف الكالفينية فى المستعمرات إلى قسمين، فالذين أصبحوا يعرفون باسم "الأضواء القديمة"، مثل الكاهنين البوسطونيين "جوناثان مايهيو" (١٧٢٠ - ١٧٦٦) و"تشارلز تشونسى" (١٧٠٥ - ١٧٨٧)، كانوا يعتقدون أن على المسيحية أن تصبح دينًا عقلانيًا تنويريًا، وكانوا يدينون الهستيريا التى صاحبت "حركات الإحياء"، ويعربون عن عدم ثقتهم فيها بسبب عدائها أو مناهضتها للفكر وكان "أعلام الأضواء" القديمة غالبًا من قطاعات المجتمع المزدهرة، وأما الطبقات الدنيا فقد انحازت إلى "الورع العاطفى" الذى كانت كنائس الأضواء الجديدة المنشقة تدعو إليه، إذ حدث فى الأربعينيات من القرن الثامن عشر أن تخلى ما يزيد على مائتى "جماعة" عن الطوائف القائمة التى كانت تنتمى إليها، وأنشأت كنائسها الخاصة. وفى عام ١٧٤١ انشقت

الأضواء الجديدة المشيخية عن مجمع المشيخيين، وأنشأت كلياتها الخاصة لتعليم الكهان، وأهمها كلية "ناساو هول" في مدينة برينستون بولاية نيوجيرسي. وعلى مر الأيام تم رأب الصدع، ولكن حركة الأضواء الجديدة كانت قد اكتسبت في فترة الانشقاق هوية منفصلة ذات مؤسسة مستقلة، وقد كتب لها أن تلعب دوراً أساسيًا في ظهور الحركة الأصولية في أواخر القرن التاسع عشر.

كانت الصحوة قد هزت الجميع هزة عنيفة، وأصبح الجميع، حتى من ينتمون إلى الأضواء القديمة، على استعداد لإضفاء دلالات دينية على الأحداث الجارية، فقال "جوناثان مايهيو" إنه يعتقد أن "ثورات عظمى قد حان موعدها" عندما بلغته أنباء وقوع عدة زلازل في الوقت نفسه في مناطق شتى من الأرض في نوفمبر ١٧٥٥، وقال إنه يتطلع إلى "بعض التغييرات الهائلة في أحوال العالم السياسية والدينية". وكان "مايهيو" يرى بالغريزة أن الصراع الإمبريالي، في حرب السنوات السبع بين بريطانيا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية، حول المستعمرات المملوكة لهما في أمريكا وكندا، صراع ديني، وكان يعتقد أنه يسرع بالمقدم الثاني للمسيح عن طريق إضعاف سلطة البابا، إذ كان البابا في نظره يمثل المسيخ الدجال، والدعيّ الأكبر المبشر بآخر أيام الدنيا. وكان رجال الأضواء الجديدة أيضًا يرون أن أمريكا تحارب على خط المواجهة معركةً كونيةً ضد قوى الشر خلال حرب السنوات السبع. وفي تلك الآونة أصبح "يوم البابا" (٥ نوفمبر) عطلة سنوية، وأصبحت الجماهير الثائرة تحرق صور البابا وتماثيله. فلقد كانت تلك أوقات عنف مخيفة، وإذا كان الأمريكيون لا يزالون يلجأون إلى منطق الروح القديم لمنح حياتهم معنى وتفسير المآسي التي لحقت بهم، فلقد كانوا أيضًا، فيما يبدو، يحسون بأن تغييرًا ما يوشك أن يقع، وفي غمار ذلك الإحساس أنشأوا دينًا من الكراهية، فأصبحوا يرون فرنسا والكنيسة الكاثوليكية الرومانية في صورة شيطانية معارضة تمامًا لصيغة الصلاح الأمريكية. وكانوا في خضم غرسهم لتلك الأوهام الخاصة بنهاية العالم، يشعرون، فيما يبدو، أنه من المحال تحقيق الخلاص، والإنقاذ النهائي، والحرية، والسلم الموعود لألف سنة هانئة إلا بتدمير البابوية، أي إنهم كانوا يرون أنه لابد من حملة تطهير دموية حتى ينشأ ذلك العالم الجديد. ولسوف نرى أن 'لاهوت الغضب' سوف ينشأ في حالات كثيرة

رداً على إشراق الحداثة، وكان الأمريكيون يشعرون بأن التغيّر قادم وقريب، ولكنهم كانوا لا يزالون ينتمون إلى العالم القديم. وعندما أدت الآثار الاقتصادية لحرب السنوات السبع إلى قيام الحكومة البريطانية بفرض ضرائب جديدة على المستعمرات الأمريكية، نشبت الأزمة الثورية التي نجم عنها اندلاع حرب التحرير الأمريكية في عام ١٧٧٥. وفي إبان ذلك الصراع الذي طال أمده، بدأ الأمريكيون سيرهم المضني والمؤلم في طريق الانفصال الجذري عن الماضي، والذي أصبح عاملاً رئيسيًا من عوامل صيغة الحداثة، وكان 'لدين الكراهية' دور رئيسي في هذا التطور الأخير.

وكان قادة الثورة - مثل "جورج واشنطن"، و"جون وصمويل أدامز"، و"توماس جيفرسون"، و"بنيامين فرانكلين" - يرون أن الثورة حدث علماني. فلقد كانوا عقلانيين، أي من رجال التنوير، يستلهمون المثل الحديثة العليا التي وضعها "جون لوك"، أو مثل فلسفة التعقل الاسكتلندية، أو أيديولوجية حزب الأحرار الراديكالي - وكانوا يؤمنون بالله دون كتبه ورسله، ويختلفون عن المسيحيين المؤمنين بما يعتبر 'المذهب الصحيح'، في نظرتهم إلى فكرة التنزيل والوهية المسيح. وكانوا يقومون بنضال عاقل براجماتي ضد السلطة الإمبريالية، ولم يتجهوا إلى الثورة إلا بخطوات بطيئة ومترددة. والمؤكد أنهم لم يكونوا يرون أنهم يخوضون حربًا كونية ضد فيالق 'المسيخ الدجال'. وعندما أصبح الانفصال عن بريطانيا محتومًا، كان هدفهم عمليًا ومحدودًا بأهداف أرضية، ألا وهو "أن المستعمرات المتحدة تعتبر، بل يجب حقًا أن تكون، دولاً حرةً مستقلة". وكان إعلان الاستقلال الذي كتبه "جيفرسون" مع "جون أدامز" و"فرانكلين"، وصادق عليه مؤتمر المستعمرات يوم ٤ يوليو ١٧٧٦ بمثابة وثيقة تنويرية، أساسها هو المثل الأعلى لحقوق الإنسان البديهية التي كان "لوك" يدعو إليها وينادي بها. وهي الحقوق التي يقول تعريفها إنها الحق في "الحياة والحرية ونشدان السعادة". وكان الإعلان يستند إلى المثل الحديثة العليا وهي الاستقلال والحكم الذاتي والمساواة باسم إله الطبيعة الذي يسمى الله (دون الكتب والرسل) ولكن الإعلان لم يكن ذا طابع سياسي ثوري. فلم تكن فيه إشارات طوباوية إلى إعادة توزيع الثروة في المجتمع، أو إنشاء نظام السعادة 'الألفية'. فلقد كان الإعلان يقوم على

المنطق العقلانى العملى الذى يضع الخطوط العريضة لبرنامج عمل بعيد التأثير ويمكن مواصلته بنجاح.

ولكن الآباء المؤسسين للجمهورية الأمريكية كانوا من النخبة الأرستوقراطية ولم تكن أفكارهم تمثل أفكار العامة، فالأغلبية الساحقة من الأمريكيين كانت "كالفنية"، ولم تكن قادرة على الانتماء إلى هذه الصيغة العقلانية. بل إن الكثيرين منهم كانوا يعتبرون الإيمان بالإله دون كتبه ورسله من الفكر الشيطانى، وكان معظم المستوطنين فى البداية عازفين عن الانفصال عن انجلترا مثل زعمائهم، ولم ينضم الجميع إلى صفوف النضال الثورى، بل إن نحو ٣٠٠٠٠ شخص كانوا يحاربون فى صفوف البريطانيين وبعد الحرب غادر عدد يتراوح بين ٨٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ شخص الولايات الجديدة وهاجروا إلى كندا أو إلى جزر الهند الغربية أو إلى بريطانيا وكان الذين اختاروا أن يقاتلوا فى سبيل الاستقلال مدفوعين بمنطق الروح القديم وأحلام السعادة 'الألفية' للمسيحية مثلما كانوا مدفوعين بالمثل العلمانية العليا للمؤسسين. والواقع أنه أصبح من العسير الفصل بين الخطاب الدينى وبين الخطاب السياسى. فالأيديولوجية العلمانية تختلط بالأيديولوجية الدينية بصورة خلاقة وتتيح للمستوطنين، على التفاوت الشديد بين الآمال التى عقدوها على أمريكا، أن يضموا صفوفهم لمحاربة القوة الإمبريالية لانجلترا. ولسوف نرى تحالفًا مماثلاً بين المثالية الدينية والمثالية العلمانية فى الثورة الإسلامية فى إيران (١٩٧٨ - ١٩٧٩) والتى كانت بمثابة إعلان استقلال ضد قوة إمبريالية.

وفى العقد الأول من الكفاح الثورى كان الناس عازفين عن الانفصال انفصالاً جذريًا عن الماضى، فكان قطع العلاقات مع بريطانيا يبدو مستبعدًا تمامًا، وكان الأمل لا يزال يراود الكثيرين فى أن تغير الحكومة البريطانية سياساتها، ولم يكن أحد يتطلع جاهدًا إلى المستقبل فى حماس وتفاؤل أو يحلم بنظام عالمى جديد، بل كان معظم الأمريكيين لا يزالون يتصدون - بفطرتهم - للأزمة بالأسلوب القديم الذى عرفه العالم قبل العصر الحديث، أى إنهم كانوا يستلهمون الماضى الذى أضفوا عليه أبعادًا مثالية لتدعيم موقفهم الحاضر. فكان القادة الثوريون والذين

اعتنقوا أيديولوجية حزب الأحرار العلمانية يستوحون ويستمدون القوة من كفاح السكسونيين ضد غزاة النورمانديين في عام ١٠٦٦ أو من الكفاح القريب العهد للبرلمانيين البيوريتانيين إبان الحرب الأهلية في انجلترا. وكان الكالفنيون يرجعون إلى العصر الذهبي الخاص بهم في ولايات نيوانجلاند، والذي ذكرهم بكفاح البيوريتانيين ضد طغيان المؤسسة الأنجليكانية في انجلترا القديمة، فلقد كانوا يطلبون الحرية والتخلص من الظلم والقهر في الدنيا الجديدة، لإيجاد مجتمع يراعي الرب في البرّية الأمريكية. وكان التركيز في المواعظ والخطب الثورية في هذه الفترة (١٧٦٣ - ١٧٧٣) ينصب على الرغبة في الحفاظ على المنجزات القيّمة للماضي. وكانت فكرة التغيير الجذري تأتي بمخاوف من التدهور والاضمحلال، أي أن المستوطنين كانوا يحاولون الحفاظ على تراثهم، في إطار الروح المحافظة القديمة، وكان تصوير الماضي يرقى به إلى المثل العليا، وتصوير المستقبل يفصح عما قد يكمن فيه من أهوال. وكان القادة الثوريون يعلنون أن القصد من أعمالهم هو تجنب الكارثة التي يتحتم وقوعها لو حدث انفصام حاسم عن التراث، وكانوا يتحدثون عن العواقب المحتملة للسياسة البريطانية برنة خوف، ويستخدمون لغة نذر النهاية في الكتاب المقدس.

ولكن ذلك لم يدم، إذ أصر البريطانيون على متابعة سياساتهم الإمبريالية على الرغم مما أثارته من خلاف، فقطع المستوطنون خط الرجعة على أنفسهم، بل لم يصبح ثَمَّ مجال للتراجع بعد حادثة إغراق شحنة الشاي البريطانية في ميناء بوسطن (١٧٧٣) ومعركتي ليكسنجتون وكونكورد (١٧٧٥)، وكان إعلان الاستقلال يعبر عن عزم جديد جسور على الانفصال عن النظام القديم والانطلاق إلى مستقبل غير مسبوق. ومن هذه الزاوية كان الإعلان بمثابة وثيقة تحديث، وكان يفصح بمفردات لغة السياسة عن الاستقلال الفكري والثورة على التقاليد، اللذين اتسمت بهما الثورة العلمية في أوروبا. ولكن معظم المستوطنين كانوا يستمدون إلهامهم من أساطير النبوءات المسيحية أكثر مما يستلهمون "جون لوك". إذ كانوا في حاجة إلى دخول الاستقلال السياسي الحديث بتركيبة فكرية متكاملة تقوم على منطق الروح الذي يألفونه، وتتضمن أعمق معتقداتهم، حتى تتيح لهم القوة النفسية على تحقيق ذلك الانتقال العسير. وعلى نحو ما سوف نصادفه كثيراً،

كان الدين يمثل الوسيلة التى تساعد الناس على مكابدة اجتياز الطريق الوعر إلى الحداثة.

وهكذا قام قساوسة كثير من الكنائس الرئيسية (حتى الأنجليكانية) بإضفاء صبغة مسيحية على الأقوال الثورية للقادة الجماهيريين مثل "سام أدامز"، فعندما كانوا يتحدثون عن أهمية الفضيلة والمسئولية فى الحكومة، كانوا يؤكدون دلالة الهجمات النارية التى كان 'أدامز' يشنها على فساد المسئولين البريطانيين. وكانت الصحوة الكبرى قد أدت من قبل إلى أن أصبح الكالفنيون الذين ينتمون إلى فئة 'الأضواء الجديدة' يستريبون 'بالمؤسسة الدينية' ويثقون فى قدراتهم الذاتية على تحقيق تغييرات رئيسية. وعندما كان الزعماء الثوريون يتحدثون عن "الحرية" فإنهم كانوا يستخدمون مصطلحًا سبق تشبعه بالمعانى الدينية، إذ كان معناه يرتبط بمعنى الغفران، وتحرر الانجيل وأبناء الرب، وكان يرتبط ببعض الموضوعات مثل مملكة الرب حيث تنتهى جميع صور الظلم، وأسطورة 'الشعب المختار' الذى سيصبح "أداة الرب" فى إحداث تغيير العالم. وكان "تيموثى دوايت" (١٧٥٢ - ١٨١٧) رئيس جامعة ييل، يتحدث بحماس عن الثورة باعتبارها فاتحة دخول أرض عمانويل وعن أمريكا باعتبارها "المقر الرئيسى لتلك المملكة الجديدة الخاصة التى سوف تُمنح للقديسين المخلصين للرب الأعلى" وفى عام ١٧٧٥ قام واعظ من ولاية كونكتيكت اسمه "إيبنزر بولدوين" ليؤكد أن الخطوب التى أتت بها الحرب لابد أن تسرع بتنفيذ خطط الرب للعالم الجديد، وأن المسيح سوف ينشئ مملكته المجيدة فى أمريكا، بعد مغادرة الدين والعلم والحرية لأوروبا وانتقالها غربًا عبر المحيط الأطلسى. وقال إن الأزمة الراهنة كانت تمهد الطريق لآخر أيام النظام الحالى الفاسد، وكان "وليم سميث"، مسئول كاتدرائية فيلادلفيا، يقول إن الرب قضى للمستعمرات أن تكون "مقره المختار للحرية والفنون والمعرفة السماوية".

ولكنه إذا كان رجال الكنيسة يضفون مسحة دينية على السياسة، فلقد كان الزعماء العلمانيون أيضًا يستخدمون مفردات الطوباوية المسيحية، فكان "جون آدامز" يرى أن استيطان أمريكا يمثل الخطة التى وضعها الإله لتنوير الإنسانية

جمعاء. وكان "توماس بين" (Paine) على اقتناع بأنه "في طوقنا أن نبدأ بناء العالم من جديد، ولم تنشأ حالة مماثلة للحالة الحاضرة منذ أيام نوح عليه السلام، ولذا فقد اقترب يوم ميلاد عالم جديد" أى إن البراجماتية العقلانية للزعماء لم تكن في ذاتها كافية لمساعدة الناس في القيام بالرحلة المخيفة إلى مستقبل مجهول وقطع الوشائج مع الوطن الأصلي. وهكذا تضافرت عوامل الحماس، والصور الشعرية، والقصص الرمزية للمسيحية في إكساب الكفاح الثورى معنىً مُهماً، وفي مساعدة العلمانيين والكالڤنيين، على حد سواء، في اتخاذ خطوة الانفصال عن التراث والتقاليد - وهى خطوة حاسمة تزحزح الإنسان عن موقعه.

وكذلك فعل 'لاهوت الكراهية' الذى كان قد تفجر إبان حرب السنوات السبع، فمثلما أطلق الإيرانيون في وقت لاحق على أمريكا اسم "الشيطان الأكبر" إبان ثورتهم الإسلامية، كان الناس يصورون المسئولين البريطانيين في صورة المتضامنين مع الشيطان إبّان الأزمة الثورية، فعندما صدر ما يسمى بقانون ضريبة التمغة (١٧٦٥) الذى ذاع سوء وقعه، ألّفَ الناس قصائد وأغاني وطنية تصور أصحاب ذلك القانون وهم اللوردات "بوت"، و"جرنفيل"، و"نورث" في صورة أتباع الشيطان، الذين كانوا يتآمرون لاستدراج الأمريكيين إلى دخول مملكة الشيطان السرمدية. وكانت التمغة توصف بأنها "وصمة الحيوان" التي سيدمغ بها الملعونون في آخر الزمان وفقًا لسفر الرؤيا. وكان الناس يحملون دُمىً تمثل الوزراء البريطانيين جنبًا إلى جنب مع صور الشيطان في مظاهرات سياسية، وكانوا يعلقونها من "أشجار الحرية" في شتى أنحاء المستعمرات. وفي عام ١٧٧٤ أصبح الملك جورج الثالث يُقرن بالمسيخ الدّجال حين منح الحرية الدينية للكاثوليك الفرنسيين في الأراضي الكندية التي فتحتها انجلترا خلال حرب السنوات السبع. وأصبحت صورته تزين أشجار الحرية إلى جانب صورة البابا (المسيخ الدجال) وصورة الشيطان. بل إن المتعلمين من سكان المستعمرات سقطوا فريسة لهذا الخوف من المؤامرة الكونية الخفية. وكان رئيسا جامعتي هارڤارد وييل يعتقدان أن المستوطنين يخوضون حربًا ضد قوات شيطانية، ويتطلعان إلى الهزيمة الوشيكة للبابوية "ذلك الدين الذى يناسب السلطة التعسفية وينميها". أى إن حرب الاستقلال أصبحت تمثل جزءًا من خطة العناية الإلهية لتدمير الكفر

البابوى، ومعنى ذلك بالتأكيد التبشير بمقدم مملكة الرب "الألفية" إلى أمريكا. وهذه الرؤية التى يمكن أن تفصح عن مرض 'البارانويا' والتى تقوم على الشعور بوجود مؤامرة كبيرة، والاتجاه إلى اعتبار الصراع السياسى العادى بمثابة حرب كونية بين قوى الخير والشر يتكرر بروزها للأسف كلما خاض شعب من الشعوب غمار الكفاح الثورى وهو على أعتاب عالم جديد. وهكذا فإن هذه الأساطير 'الشيطانية' ساعدت أهل المستعمرات على فصل أنفسهم بصورة قاطعة عن العالم القديم، على الرغم مما ظل يكمن فى قلوبهم من حب قديم له، أى إن إضفاء ملامح الشيطان على انجلترا حولها إلى "الآخر" المناقض، أى إلى القطب المعارض لأمريكا، مما ساعد المستوطنين على تشكيل هُوِيَة متميزة لهم وعلى الإفصاح عن النظام الجديد الذى كانوا يكافحون فى سبيل إيجاده.

وهكذا اضطلع الدين بدور أساسى فى إنشاء أول جمهورية علمانية حديثة. أما بعد الثورة، فلم تعد الدساتير التى وضعتها الولايات الجديدة المستقلة لنفسها تشير إلى الإله إلا إشارات عابرة إلى أقصى حد. ففى عام ١٧٨٦ أعلن توماس جيفرسون أن الكنيسة الأنجليكانية لم تعد الكنيسة الرسمية فى ولاية فيرجينيا، وكان المرسوم الذى أصدره فى هذا الصدد يقول إن القهر أو القسر فى مسائل الدين "ينم عن الخطيئة والطغيان" وإن الحقيقة سوف تنتصر إذا سُمح للناس باعتناق أفكارهم الخاصة، وأنه لابد من إقامة "جدار يفصل" بين الدين والسياسة. وحظى المرسوم بتأييد المعمدانيين، والميثوديين، والمشيخيين فى فيرجينيا، لأنهم كانوا مستائين من المكانة المتميزة التى كانت كنيسة انجلترا تتمتع بها فى الولاية. وحذت الولايات الأخرى حذو ولاية فيرجينيا فيما بعد، وأعلنت عدم وجود كنيسة رسمية لأى منها، وكانت ولاية "ماساتشوستس" آخر ولاية تفعل ذلك - فى عام ١٨٣٣. وعندما حان وضع الدستور الاتحادى فى عام ١٧٨٧، فى مؤتمر فيلادلفيا، كان يخلو تماماً من أى ذكر للرب. وفى إطار لائحة الحقوق (١٧٨٩) كان التعديل الأول للدستور يفصل رسميا بين الدين والدولة قائلا "لا يضع الكونجرس أى قوانين لتحديد الدين الرسمى أو لحظر حرية الممارسة الدينية". ومنذ تلك اللحظة أصبحت العقيدة مسألة فردية خاصة وطوعية فى الولايات المتحدة. وكانت تلك خطوة ثورية، ولقد هلل لها الناس باعتبارها من أعظم

منجزات عصر العقل، ولا شك أن التفكير الذى أدى إليها كان يستلهم فلسفة التسامح التنويرية، ولو أن الآباء المؤسسين كانت لهم دوافعهم البراجماتية أيضًا، إذ كانوا يعرفون أن الدستور الاتحادى له أهميته الكبرى فى الحفاظ على وحدة الولايات، ويعرفون فى الوقت نفسه أيضًا أنه إذا اعتمدت الحكومة الاتحادية مذهبًا معينًا من المذاهب البروتستانتية وجعلته الدين الرسمى للولايات المتحدة، فلن تتحقق الموافقة على الدستور، فعلى سبيل المثال لم يكن من الممكن مطلقًا لولاية ماساتشوستس، التى تؤمن بمذهب الكنائس الحرة أن تصادق على دستور يعتبر الكنيسة الأنجليكانية الكنيسة الرسمية فى أمريكا. وكان ذلك أيضًا هو سبب النص فى القسم الثالث من المادة السادسة من الدستور، على إلغاء الاختبارات الدينية للمتقدمين للحصول على وظائف فى الحكومة الاتحادية. ولا شك أن قرار "المؤسسين" بعدم النص على دين رسمى وإضفاء العلمانية على السياسة كان مدفوعًا بمشاعر مثالية، فلم يكن من الممكن لتلك الأمة الجديدة أن تضمن إخلاص رعاياها جميعًا إن هى أقامت هويتها على أساس خيار طائفى واحد. أى إن متطلبات الدولة الحديثة قضت بأن تتسم بالتسامح ومن ثم بالعلمانية.

ومن المفارقات العجيبة أن تتحول الولايات المتحدة - تلك الدولة العلمانية الجديدة - إلى أمة مشبوبة الإخلاص للمسيحية بحلول منتصف القرن التاسع عشر. ففى الثمانينيات من القرن الثامن عشر ازداد نمو جميع الكنائس، وتضاعفت فى تسعينيات القرن نفسه، وبدأت فى معارضة أيديولوجية التنوير التى وضعها الآباء المؤسسون، فأضفت طابع قداسة على الاستقلال الأمريكى، قائلة إن الجمهورية الجديدة إنجاز إلهى، وإن المعركة الثورية كانت تمثل قضية الجنة ضد الجحيم، وإن المثال الوحيد فى التاريخ لتدخل الرب تدخلاً مباشرًا فى حياة شعب ما قبل ذلك كان ما حدث لبنى إسرائيل فى العهود الغابرة، فكان تيموثى دوايت يقول لتلاميذه إنه يقر على مضض بأن الدستور لا يذكر الرب صراحة، ولكن "ما عليكم إلا أن تنظروا فى تاريخ بلادكم، فتجدوا من الأدلة الرائعة والبراهين الساطعة على حماية الإله لنا وتدخله لخلاصنا ما لا يمكن أن يقل كرمًا.. عما أبداه الرب لبنى إسرائيل فى مصر". وكان رجال الدين يتنبأون فى ثقة بأن الشعب الأمريكى سيزداد تقوى وورعًا، قائلين إن اتساع آفاق حدود الدولة

الجديدة كان آية المملكة المقبلة. وإنه إذا كانت الديموقراطية قد مَنحت السيادة لأبناء الشعب، فعليهم أن يزيدوا قربًا من الرب، حتى يتفادوا الأخطار الكامنة فى حكم العامة، أى إن على أبناء أمريكا أن ينقذوا أنفسهم من الكفر المتمثل فى الإيمان بالإله دون كتبه ورسله، فهو المذهب الذى يتبعه زعماؤهم السياسيون، وهو المذهب الذى أصبح رجال الكنيسة يعتبرونه العدو الشيطانى الجديد، بل إنهم جعلوه كبش الفداء الذى يفسر جميع العثرات المحتومة للأمة الوليدة، وكانوا يؤكدون أن من شأنه أن يشجع على الإلحاد والمادية، فهو تقديس للطبيعة والعقل لا للمسيح، ولم يلبث أن نشأ خوف يتسم بالبارانويا من جماعة يكتنفها الغموض تسمى "جماعة المتنورين البافاريين" وكان أعضاؤها من الملحدين والماسونيين، وقيل إنهم يتآمرون للإطاحة بالمسيحية فى الولايات المتحدة. وعندما رشح توماس جيفرسون نفسه لرئاسة الجمهورية عام ١٨٠٠ شهدت أمريكا حملة جديدة مناهضة للمذهب المذكور، حاول رجالها إقامة صلة ما تربط بين جيفرسون و"اليعقوبيين" الملحدين من زعماء الثورة الفرنسية الكافرة.

كان اتحاد الولايات الجديدة بُنيانًا هشًا، وكانت الآمال التى يعقدها الأمريكيون على الأمة الجديدة تتفاوت تفاوتًا كبيرًا، ما بين العلمانية والبروتستانتية. ولقد أثبت كل من المذهبين أنه لا يقل قدرة على الصمود من صاحبه، وما زال الأمريكيون يبجلون دستورهم، ويوقرون الآباء المؤسسين، ولكنهم أيضًا يرون أن أمريكا هى "أمة الرب الخاصة"، بل إن بعض البروتستانتيين، كما سنرى، لا يزالون يعتبرون "المذهب الإنسانى العلمانى" شرًا له أبعاد شبه شيطانية. وقد انقسمت الأمة على نفسها بعد الثورة انقسامًا مريرًا، وانخرط الأمريكيون فى صراع داخلى لتحديد مستقبل ثقافتهم. بل إنهم قاموا، فعليًا، "بثورة ثانية" فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر. كان الأمريكيون قد انتهوا - بصعوبة بالغة وشجاعة فائقة - من التخلص من الماضى، ومن كتابة الدستور الذى يعد فتحًا جديدًا، والإتيان بأمة جديدة إلى الوجود، ولكن ذلك صاحبه الإجهاد والتوتر والمفارقات، أى إنه كان لا يزال على الشعب، ككل، أن يقرر ويبت فى شرائط دخوله إلى العالم الحديث، وكان الكثيرون من أهل المستعمرات الفقراء على استعداد لمعارضة الهيمنة الثقافية للنخبة الأرستوقراطية التنويرية، وكان ما يزال

على الأمريكيين العاديين، بعد أن هزموا البريطانيين، أن يقرروا معنى الثورة بالنسبة لهم. ترى هل يأخذون بالعقلانية الهادئة المتحضرة المهذبة التي صاغها المؤسسون، أم يختارون هوية بروتستانتية أغلظ وأخشن ملمساً وأشد اقتراباً من العامة ؟

كان الآباء المؤسسون ورجال الدين في كنائس الطوائف الرئيسية قد تعاونوا في إنشاء جمهورية علمانية حديثة، ولكن كلا الجانبين كان لا يزال ينتمي، من عدة زوايا مهمة، إلى العالم المحافظ القديم، أي إنهم كانوا ينتمون إلى الأرستوقراطية، وإلى الصفوة أو النخبة، وكانوا يعتقدون أن مهمتهم، باعتبارهم من رجال الدولة المتنورين، أن يقودوا الأمة "من القمة"، ولم يكونوا يتصورون إمكانية حدوث التغيير "من القاعدة"، أي إنهم كانوا لا يزالون يرون أن التحول التاريخي ثمرة لجهود كبار الشخصيات، الذين كانوا يشبهون في سلوكهم أنبياء الماضي من هداة البشرية الذين يصنعون التاريخ صُنعًا. ولم يكونوا قد أدركوا بعد أن المجتمع كثيراً ما يتقدم نتيجة قوى وحركات غير فردية، أو "لا شخصية"، إذ قد تؤدي العوامل البيئية والاقتصادية والقوى الاجتماعية إلى إحباط خطط ومشروعات أشد الزعماء قوة وقدرة على القهر. فدارت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الثامن عشر مناقشات مستفيضة حول طبيعة الديموقراطية : ما مدى السلطة التي ينبغي السماح بها للشعب ؟ أما "جون أدامز" الرئيس الثاني للولايات المتحدة، فكان يستريب بأي نظام للحكومة يمكن أن يؤدي إلى حكم الغوغاء وإفقار الأغنياء. ولكن الثوريين من أنصار جيفرسون كانوا يتساءلون كيف يمكن للصفوة وهي أقلية أن تتكلم باسم الأكثرية ؟ وكانوا يحتجون على "استبداد" حكومة آدامز، وينادون بضرورة الاستماع إلى صوت الشعب. والواقع أن نجاح الثورة قد منح كثيراً من الأمريكيين إحساساً بأن السلطة قد انتقلت إلى أيديهم، بعد أن بينت لهم أن السلطة "المؤسسة" غير معصومة ولا تستعصي على القهر، فأصبح من المحال إعادة الجنّي إلى القمقم الذي خرج منه. وكان أنصار جيفرسون يعتقدون أن الناس العاديين يجب أن يتمتعوا هم أيضاً بالحرية والاستقلال اللذين كان الفلاسفة الفرنسيون ينادون بهما، فبدأت الصحف الجديدة تسخر من الأطباء والمحامين ورجال الدين وغيرهم من المتخصصين، وتنادي بألا يصدق أحد هؤلاء "الخبراء"

المزعومين تصديقًا تامًا، فالقانون والطب والدين من المجالات التى تقع فى رأيها فى نطاق مدارك أصحاب الفطرة السليمة وفى متناول أيدى الجميع.

وقد شاع ذلك الإحساس شيوعًا كبيرًا فى المناطق النائية، حيث أحس سكانها بأن الحكومة الجمهورية لا تقيم لهم وزنًا، فالواقع هو أنه بحلول عام ١٧٩٠ كان نحو ٤٠ فى المائة من الأمريكيين يقيمون فى مناطق لم يستوطنها البيض إلا قبل ثلاثين سنة تقريبًا. وكان هؤلاء 'الروّاد' يشعرون بالاستياء من النخبة الحاكمة التى لم تكن تشاركهم مصاعب حياتهم، وإن كان ما تفرضه عليهم من الضرائب الباهظة لا يقل قسوة عما عرفوه أيام الحكم البريطانى، وكانت تشترى الأراضى لاستثمارها فى تلك المناطق دون أدنى نية فى التخلى عن أسباب الراحة والتحضر والرقى فى الساحل الشرقى، وكانوا من ثم على استعداد للاستماع إلى وعاظ من نوع جديد ساعدوا على إثارة موجة جديدة من حركات الإحياء التى عرفت باسم الصحوة الكبرى الثانية، وكانت تفوق الصحوة الأولى فى طابعها السياسى الثورى. ولم يكن هؤلاء الدعاة تشغلهم قضية الهداية فحسب، بل كانوا يعملون على تشكيل المجتمع والدين بأسلوب يختلف اختلافًا شاسعًا عن كل ما كان الآباء المؤسسون يتصورونه.

ولم يكن أصحاب حركة الإحياء الجديدة من المتخصصين - مثل "جوناثان إدواردز" و"جورج هوايتفيلد" - الذين درسوا وتخرجوا فى جامعتى ييل وأكسفورد، بل كانوا يكرهون العالم الأكاديمى ويؤكدون بإصرار أنه من حق كل مسيحى أن يتولى تفسير الكتاب المقدس بنفسه، دون الخضوع لخبراء اللاهوت. ولم يكن هؤلاء الدعاة من 'المثقفين' بل كانوا يستخدمون فى خطبهم لغة يفهمها الناس العاديون، وكثيرًا ما كانوا يستخدمون إيماءات جسدية غير مألوفة، إلى جانب الفكاهات الفظة والتعبيرات الدارجة. ولم تكن شعائر الصلاة لديهم تتسم بالتهذيب ومراعاة اللياقة الواجبة، بل كان يسودها الصخب والضجيج وشطط الانفعال، فكانوا بذلك يعيدون تشكيل صورة المسيحية وتقديمها فى صورة على مبعدة سنوات ضوئية من الصيغة المهذبة لعصر العقل. فكانوا مثلاً يسيرون فى مواكب ويعقدون مؤتمرات شعبية على ضوء الشموع، ويقيمون خيامًا هائلة على

مشارف المدن، حتى كانت حركات الإحياء كثيراً ما تتخذ مظهر المخيّم الضخم. وكان النوع الجديد من الأناشيد الانجيلية يصعد بالحاضرين إلى ذروة الانتشاء، فيبكون ويهتزّون بعنف، إلى الخلف وإلى الأمام، ويصيحون صيحات الفرح. ولم يكن هؤلاء يضفون الطابع العقلاني على الدين، بل كانوا يعتمدون على الأحلام والرؤى، وعلى الآيات والأعاجيب أى على كل ما كان يأسف له العلماء وفلاسفة التنوير، ومع ذلك فقد كان هؤلاء الدعاة يرفضون، مثل أتباع جيفرسون، النظر إلى الماضي باعتباره مستودع الحكمة، على نحو ما كان المحافظون يفعلون، فلقد كانوا مُحدثين، يقولون إنه لا ينبغي للناس الالتزام بتراث التفسير السلفي، فهم يتمتعون بحرية أبناء الرب، ولديهم منطق الفطرة السليمة، وما عليهم إلا أن يستندوا إلى الحقائق الواضحة في الكتب المقدسة حتى يدركوا الحقيقة وحدهم. وانطلق الوعاظ الجدد يهاجمون الأرستوقراطية، و'المؤسسة الاجتماعية' ورجال الدين الضالعين في العلم، ويؤكدون نزعات المساواة في العهد الجديد (من الكتاب المقدس) التي تقول إن الواجب في الجمهورية المسيحية أن يأتي الأول أخيراً ويأتي الأخير أولاً، وإن الرب قد نفث طاقات الحدس الربانية في الفقراء وغير المتعلمين، وإن المسيح ورسله لم يحصلوا على درجات جامعية.

كان الدين والسياسة ينتميان إلى رؤية واحدة، وكأنما كان "لورنزو داو"، بخصلات شعره المنسابة وعينيه الشاردتين البراقتين، هو يوحنا المعمدان ابن العصر الحديث، فكان يرى العاصفة عملاً عمله الرب مباشرة، وكان يستقي نظراته الخاصة من الأحلام والرؤى. وقد يكون التغير في أحوال الجو "علامة" على 'نهاية الزمان' التي اقتربت، وكان يزعم قدرته على التنبؤ بالمستقبل، أى إنه كان يبدو، باختصار، نقيض عالم الحداثة الجديد، ومع ذلك فمن المحتمل أن يبدأ موعظةً بعبارات مقتطفة من أقوال "جيفرسون" أو "توماس پين"، وكان يحث الناس، شأنه في ذلك شأن المحدثين الصادقين، على كسر أغلال الخرافات والجهل، وطرح سلطة المؤسسة العلمية السلفية، والاعتماد على تفكيرهم المستقل. وكان يبدو أن الدين والسياسة قد أصبحا وجهين لعملة واحدة في الولايات المتحدة الجديدة، وكان كل منهما يصبُّ بسهولة في الآخر، مهما تكن أقوال الدستور في الموضوع. وهكذا تعرض "إلياس سميث" للتحول السياسي أولاً إبان الحملة الانتخابية

للرئيس "جيفرسون"، فأصبح من دعاة المساواة الثورية، ثم مضى في الطريق نفسه لينشئ كنيسة جديدة ذات طابع ديموقراطي بارز، وكذلك فعل "جيمس أو كيلي" الذي حارب في صفوف الثوار وأسرته القوات البريطانية، فاكتسى فكره طابعًا سياسيًا جليًا دفعه إلى نشدان كنيسة تحقق المزيد من المساواة وسرعان ما انشق عن تيار المسيحية الرئيسي لإرساء أسس مذهبه الخاص الذي أصبح يعرف باسم الميثودية الجمهورية. وعندما انفصل "بارتون ستون" عن المذهب المشيخي، أطلق على انفصاله صفة "إعلان الاستقلال". أما الكسندر كامبل (١٧٨٨ - ١٨٦٦) الذي كان قد تخرج في الجامعة، فقد هجر مذهب المشيخية الاسكتلندية عندما هاجر إلى أمريكا، وأنشأ طائفة جديدة كانت أقرب ما تكون إلى ما يسمى "الكنيسة البدائية" القائمة على المساواة. وكان "جوزيف سميث" (١٨٠٥ - ١٨٤٤) يفوق الجميع في نزعته الثورية، فلم يقنع بقراءة الكتاب المقدس، بل زعم أنه اكتشف كتابًا مقدسًا جديدًا كل الجدة. وكان "سفر مورمون" أشد صيحات الاحتجاج الاجتماعي فصاحة وبلاغة في القرن التاسع عشر، إذ حمل حملة ضارية على الأغنياء، وذوي السلطان والمتعلمين. وكان سميث قد عاش هو وأسرته سنوات طويلة على شفا العُدْم، وكان يشعر بأنه لا يوجد مكان لهم في تلك الجمهورية الجديدة الجميلة، وكان أوائل من تحولوا إلى اعتناق المورمونية من الفقراء من أمثاله، مهمشين، يائسين، وعلى أتم استعداد لاتباع خطوات سميث في الخروج وفي الرفض الرمزي للولايات المتحدة. وما لبث المورمونيون أن أنشأوا ممالكهم المستقلة، وكانت أولاها في ولاية إلينوى، وآخرها في ولاية يوتاه.

وكانت المؤسسة الاجتماعية تنظر بازدراء إلى "داو"، و"ستون"، و"جوزيف سميث" إذ كانت ترى فيهم زعماء غوغائيين، أذهانهم خاوية، ولا يمكنهم المساهمة بأي جديد في العالم الحديث، فهم دعاة همجيون، فيما يبدو، لا ينتمون لهذا العالم، بل يعتبرون من مخلفات عالم بدائي عفا عليه الزمن. وكان رد الفعل من جانب رجال الدين المنتمين إلى 'التيار الرئيسي' ومن جانب الأرستوقراطية الأمريكية، إزاء هؤلاء 'الأنبياء المحدثين' لا يختلف عن نظرة الليبراليين والعلمانيين إلى زعماء الحركات الأصولية اليوم. ولكنهم أخطأوا حين أغفلوهم، فلقد وُصف بعضهم، مثل "داو" أو "جوزيف سميث" بأنهم عباقرة شعبيون إذ

استطاعوا أن يحملوا المثل العليا الثورية الحديثة - أى مُثُل الديموقراطية، والمساواة، وحرية التعبير، والاستقلال - إلى الشعب بالمفردات التى يستطيع غير المتعلمين أن يفهموها وأن يعتنقوها. وكان نقل هذه المثل العليا الجديدة، التى كُتب لها أن تصبح أساسية فى العالم الجديد الذى كان يرى النور آنذاك فى أمريكا، إلى الغالبية المحرومة، يجرى فى سياق منطق الروح الذى وهبها معنى، وهيأ لها الاستمرار اللازم فى زمن البلبلة والقلاقل الثورية. وكان هؤلاء الدعاة الجدد يسعون إلى الاعتراف بوجودهم، ولا يلقون إلا الشتائم من جانب الصفوة فى المؤسسة الاجتماعية، ولكن ترحيب الناس بهم أثبت أنهم كانوا يلبّون حاجة حقيقية لديهم، ولم يكونوا قانعين بتحوّل الأفراد لمذهبهم، مثل الدعاة فى الصحوة الكبرى الأولى، ولكنهم كانوا يريدون تغيير المجتمع، وتمكنوا فعلاً من تعبئة السكان وحشدهم فى حركات جماعية على مستوى الأمة كلها، مستخدمين الموسيقى الشعبية ووسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة فى الوصول إلى نتائج باهرة. أى إنهم لم يحاولوا، مثلما فعل الآباء المؤسسون، أن يفرضوا صيغة الحداثة من "القمة"، بل بدأوا البناء عند القاعدة، وتزعموا ما كان يعتبر تمرداً شعبيًا على المؤسسة العقلانية. ونجحوا نجاحًا مرموقًا، إذ اندمجت الطوائف التى أنشأها "إلياس سميث" و"أوكيلى"، و"كامبل" و"ستون" - على سبيل المثال - فى طائفة جديدة اسمها "حواريو المسيح"، وما إن حل عام ١٨٦٠ حتى كان عدد أعضاء "الحواريين" قد بلغ ٢٠٠٠٠٠ شخص، وأصبحت تحتل المركز الخامس عددًا بين الطوائف البروتستانتية فى الولايات المتحدة. وهكذا نجح "الحواريون"، مثل "المورمونيين"، من تحويل السخط الشعبى إلى مؤسسة جديدة لا تملك "المؤسسة الاجتماعية الرئيسية" أن تتجاهلها.

ولكن هذا التمرد المسيحى الجذرى على العقلانية العلمية التى أتى بها التنوير كانت له آثار أعمق وأكبر، إذ إن الصحوة الكبرى الثانية استطاعت أن تصرف الكثير من الأمريكيين عن المذهب الجمهورى الكلاسيكى للمؤسسين وتدخلهم ساحة الديموقراطية السوقية والنزعة الفردية الغليظة التى تميز الكثير من مظاهر الثقافة الأمريكية اليوم، فلقد تصدوا لحكم النخبة وأحرزوا نجاحًا كبيرًا، وتتسم

الروح الأمريكية بعنصر أقرب إلى الاتجاه الشعبى ومناهضة النشاط الفكرى - وهما اللذان تميز بهما "أنبياء" القرن التاسع عشر - منه إلى الصيغة الهادئة لعصر العقل، مما جعل مظاهر الإحياء الصاخبة الباهرة فى الصحوة الكبرى الثانية تترك طابعًا دائمًا على الأسلوب السياسى المتميز للولايات المتحدة، ولا يزال كثير من الأوروبيين يشعرون بالحيرة حين يشهدون المؤتمرات الشعبية، والتعبير دون خجل عن المشاعر، والبهرجة التى يتوسل بها أصحاب الشخصيات الساحرة فى أمريكا، ولقد نجح 'أنبياء' الصحوة الكبرى الثانية، مثل الكثير من الحركات الأصولية اليوم، فى تمكين الناس الذين كانوا يشعرون بأنهم مقيدون ومستغلون فى الولايات الجديدة من توصيل آرائهم وإسماع أصواتهم للنخبة ذات الامتيازات الكثيرة. أى إن حركاتهم مكنت الناس من "الإحساس بأهميتهم" على حد تعبير مارتن لوثر كنج، بنفس الأسلوب الذى تتبعه الجماعات الأصولية اليوم، إذ كانت هذه الطوائف الجديدة جميعًا، مثل الحركات الأصولية، ترجع بأبصارها إلى نظام بدائى، وتعقد العزم على إعادة بناء الدين الأصلى، وكانت جميعًا تعتمد على النصوص المقدسة بطرائق جديدة كل الجدة، وكانت تفسرها تفسيرًا حرفيًا، وقد يصل إلى حد الاختزال أحيانًا. وكانت تميل جميعًا إلى الدكتاتورية، وكان من المفارقات فى مطلع القرن التاسع عشر فى أمريكا، وفى الحركات الأصولية فى أواخر القرن العشرين، أن نجد الرغبة فى الاستقلال والحكم الذاتى والمساواة وقد دفعت بأعداد كبيرة من الناس إلى إطاعة القادة الدينيين الغوغائيين طاعةً مضمرة، فكان "جوزيف سميث" على كثرة ما تحدث عن الحرية والتحرر قد أنشأ ما يعتبر دكتاتورية دينية فى الواقع وكان "ألكسندر كامبل"، على امتداحه للمثل العليا للكنيسة البدائية المتمثلة فى المساواة والروح الجماعية، قد أصبح أغنى رجل فى فرجينيا الغربية، وكان يحكم أتباعه بيد من حديد.

وتكشف لنا الصحوة الكبرى الثانية عن أنواع الحلول التى يجدها الكثيرون جذابة عندما يتعرض مجتمعهم لزلزلة التحديث وقلاقله، فكان 'أنبياء' الصحوة الكبرى الثانية يقومون بثورة، مثل الأصوليين المحدثين، على عقلانية العلم لدى الطبقات الحاكمة ويصرون على هوية ذات طابع دينى أكبر، وينجحون، فى نفس الوقت، فى أن يجعلوا الصيغة الفكرية الحديثة فى متناول أيدى الذين لم تُتح لهم

فرصة دراسة ما كتبه "ديكارت" أو "نيوتن" أو "جون لوك"، ومعنى نجاح هؤلاء 'الأنبياء' الأمريكيين فى ثورتهم الدينية وصمود هذه الثورة واستمرارها فى الولايات المتحدة، أننا لا يجب أن نتوقع أن تكون الحركات الأصولية الحديثة فى المجتمعات التى تمر حاليًا بمرحلة التحديث حركات عابرة أو بمثابة "جنون" مؤقت. فإذا كانت الطوائف الأمريكية الجديدة قد بدت غريبة للمؤسسة الاجتماعية فلقد كانت فى جوهرها حديثة، وجزءاً لا يتجزأ من العالم الجديد، ويصدق ذلك بصفة مؤكدة على الحركة "الألفية" التى أسسها مزارع من نيويورك يدعى وليم ميلر (١٧٨٢ - ١٨٤٩) إذ عكف على دراسة نبوءات الكتاب المقدس، و"أثبت" بعد سلسلة من الحسابات الدقيقة، فى كتيب نشره عام ١٨٣١، أن رجعة المسيح ستقع فى عام ١٨٤٣، وكان "ميلر" يقرأ الكتاب المقدس بالطريقة الحديثة، فلم يكن يرى أنه يستند إلى منطق الروح ويرمز إلى حقائق خالدة، بل افترض أن سفر الرؤيا مثلاً يتضمن نبوءات دقيقة بأحداث توشك أن تقع، ويمكن تحديدها بدقة العلم الطبيعى والرياضيات. أى إن الناس أصبحوا يقرأون النصوص للحصول على المعلومات، ويؤمنون بأن الحقيقة لابد من أن تخضع للبراهين المنطقية والعلمية، وكان "ميلر" يقرأ منطق الروح فى الكتاب المقدس كما لو كان منطق العقل، وكان يؤكد مع مساعده "جوشوا هاينز" باستمرار الطابع العلمى المتسق للبحوث التى كان يجريها، وكانت الحركة ذات طابع ديموقراطى أيضًا، فلكل إنسان حق تفسير الكتاب المقدس بنفسه، وكان "ميلر" يشجع أتباعه على معارضة حساباته والتوصل إلى نظريات مستقلة.

وعلى الرغم من شطط الحركة وغرابتها فقد اجتذبت الناس على الفور، فانضم إلى صفوفها نحو ٥٠٠٠٠ أمريكى، وأبدى آلاف آخرون تعاطفهم معها دون الالتحاق 'رسميا' بها، ولكن المحتوم ما لبث أن وقع، فأصبحت "الميلرية" درسًا فى مخاطر التفسير الحرفى لمنطق الروح فى الكتاب المقدس، حين لم يرجع المسيح عام ١٨٤٣ وفقًا لوعود "ميلر"، وشعر أتباعه بصدمة عنيفة. ولكن ذلك لم يكن معناه انتهاء حلم "الألفية" بل أصبح الحلم واستمر يمثل إحدى العواطف المشبوبة الكبرى فى الولايات المتحدة. فمن خضم "خيبة الأمل الكبرى" عام ١٨٤٣

ظهرت طوائف جديدة، مثل طائفة "الأدفنتست السباعية" (أى الرجعة فى اليوم السابع) وعدّلت الجدول الزمنى الدينى، وتجنبت وضع تنبؤات دقيقة، فأتاحت لأجيال جديدة من الأمريكيين أن يتطلعوا إلى نهاية التاريخ الوشيكة.

وكان هذا اللون الجديد الغليظ الديموقراطى من المسيحية مقصوراً فى البداية على الطبقات الفقيرة وغير المتعلمة، ولكن تشارلز فينى (١٧٩٢ - ١٨٧٥) الذى يعتبر شخصية محورية في تاريخ الدين فى أمريكا تمكن فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر من نشره فى الطبقات المتوسطة، إذ ساعد فى جعل ما يسمى بالمسيحية "الانجيلية"، أى التى تقوم على القراءة الحرفية للأناجيل وتهدف إلى هداية العلمانيين إلى دين المسيح، العقيدة السائدة فى الولايات المتحدة بحلول منتصف القرن التاسع عشر. وكان "فينى" يستخدم الأساليب الغريبة الطليقة التى اتبعها أسلافه من 'الأنبياء' الأمريكيين ولكنه كان يخاطب المحامين والأطباء والتجار، ويحثهم على الإحساس بالمسيح مباشرة، دون وساطة المؤسسة الدينية، وأن يفكروا بأنفسهم، وأن يتمردوا على هيمنة علماء اللاهوت فى شتى الطوائف. كما كان يحث مستمعيه من أبناء الطبقة المتوسطة على مشاركة الانجيليين الآخرين فى الإصلاح الاجتماعى.

كانت الدولة قد أعلنت بعد الثورة استقلالها عن الدين، وبدأ المسيحيون من شتى المذاهب، فى نفس الوقت، انسحابهم من الدولة، بعد أن خاب الأمل وساء الظن بالثورة التى عجزت عن الإتيان بالسعادة "الألفية". وبدأ البروتستانتيون يؤكدون ضرورة الحفاظ على "الحيز" الدينى الذى يفصلهم عن الحكومة الجمهورية التى تؤمن بالله دون كتبه ورسله، فكانوا يعتبرون أنفسهم مجتمع الرب الذى لا ينتمى إلى الحكومة الاتحادية. أى إن البروتستانتيين كانوا لا يزالون يعتقدون أن أمريكا ينبغى أن تصبح أمة ورع وتقوى، وازداد رسوخ الاعتقاد بأن "الفضيلة العامة" لا علاقة لها بالسياسة، أى بأنه من الأفضل للمرء أن يعمل على إتاحة الخلاص للمجتمع خارج إطار الدولة، أى فى الكنائس والمدارس وجمعيات الإصلاح المتعددة التى تكاثرت فى الولايات الشمالية فى عشرينيات القرن التاسع عشر بعد الصحوة الكبرى الثانية. وهكذا بدأ المسيحيون العمل من أجل عالم

أفضل، فقاموا بحملات ضد الرق والخمر، ومن أجل رفع الظلم عن الجماعات المهمشة، وكان الكثيرون من أتباع "ميلر" أعضاء في المنظمات التي تدعو إلى الاعتدال، وحظر المسكرات، ونصرة المرأة. ولا شك أن ذلك كله كان يتضمن عنصراً من عناصر الرقابة الاجتماعية. كما كان هناك دافع تعصب ذميم للسكان الأصليين في التأكيد على الفضائل البروتستانتية الخاصة مثل التقتير وعدم السكْر والاستقامة والنظافة، إذ انزعج البروتستانتيون أيّما انزعاج من تدفق المهاجرين الكاثوليك بأعداد هائلة على الولايات المتحدة، فلقد كانت أمريكا في وقت الثورة بلداً بروتستانتياً لا يمثل فيه الكاثوليك إلا واحداً في المائة من المجموع الكلي للسكان، ولكنه ما إن حلت أربعينيات القرن التاسع عشر حتى كان عدد الكاثوليك يربو على ٢,٥ مليون في أمريكا، وأصبحت الكاثوليكية الرومانية أكبر الطوائف المسيحية في الولايات المتحدة. وكان هذا التطور مبعث فزع لأمة طالما اعتبرت أن البابا هو المسيخ الدجال. وكانت بعض جهود الإصلاح في إطار الحركة الإنجيلية محاولة واضحة لمقاومة ذلك النفوذ الكاثوليكي، وكانت الدعوة إلى الاعتدال، مثلاً، تستهدف معارضة ولع الأمريكيين من ذوي الأصول البولندية والأيرلندية والإيطالية بشرب الخمر.

ومع ذلك فقد كانت حركات الإصلاح الإنجيلية المذكورة حركات إيجابية وتحديثية، فقد اتسمت بتأكيد قيمة كل إنسان مهما يكن، وسعت سعياً حثيثاً لنشر مبدأ المساواة الذي ساعد على جعل الرق أمراً ذميماً لا يطاق في الولايات الشمالية، وإن كان ذلك لم يحدث في الولايات الجنوبية، التي لم تكن قد تأثرت فعلياً بالصحوة الكبرى الثانية، واستمر هيكلها الاجتماعي يقوم على النخبة ويتسم بمظاهر المجتمع السابق للحداثة، حتى بعد انتهاء الحرب الأهلية بزمن طويل. وهكذا فإن حركات الإصلاح ساعدت الناس على استيعاب المثل الأعلى الحديث - أي وجود حقوق إنسانية ثابتة - في إطار ديني مسيحي، على الأقل في الشمال. كما كانت الحركات الرامية إلى نصرة المرأة وإجراء الإصلاحات اللازمة في قانون العقوبات والنظم التعليمية، والتي كان المسيحيون الانجيليون يمثلون رأس حربتها، حركات تقدمية أيضاً. فكانت جماعات الإصلاح نفسها تساعد الناس على اكتساب الروح الحديثة، إذ كان أعضاء تلك الجماعات يتخذون

قراراتهم طوعًا وعن وعي كامل بالإنضمام لتلك الجماعات، ويتعلمون أساليب التخطيط والتنظيم وتحقيق الأهداف المحددة بوضوح، بطرائق حديثة عقلانية. وانتهى الأمر بالمسيحيين الانجيليين إلى أن أصبحوا العمود الفقرى لحزب الأحرار (الذى خلفه إلى حد بعيد الحزب الجمهورى الحالى) فى حين كان خصومهم (الأضواء القديمة والكاثوليك) يميلون إلى تفضيل الحزب الديموقراطى. أى إن الأحرار / الجمهوريين كانوا يريدون إنشاء "امبراطورية الصلاح" فى أمريكا، على أساس فضائل التقوى والورع لا على فضائل التنوير.

وهكذا لم يعد الانجيليون، بحلول منتصف القرن التاسع عشر، مهمشين أو خاضعين لأى قيود، فلقد نجحوا فى تحدى المؤسسة العلمانية وإسماع الجميع أصواتهم، وكانوا قد انخرطوا آنذاك فى كفاح يرمى إلى فتح جديد للمجتمع الأمريكى، وقد قر عزمهم على إعادته إلى الصيغة البروتستانتية الصادقة. وكانوا يفخرون بما أنجزوه، فلقد خلفوا آثارًا لا تمحى في الثقافة الأمريكية، التى أصبحت، على الرغم من الطابع العلمانى لدستور الولايات المتحدة، أقرب إلى المسيحية آنذاك عما كانت فى أى يوم من الأيام، إذ ارتفع عدد الهيئات الكنسية فى الولايات المتحدة ما بين عامى ١٧٨٠ و ١٨٦٠ ارتفاعًا مذهلاً، فاق بمراحل المعدل الوطنى للزيادة السكانية. ففى عام ١٧٨٠ لم يكن عددها يتجاوز ٢٥٠٠، وارتفع الرقم إلى ١١٠٠٠ بحلول عام ١٨٢٠، ثم وصل فى عام ١٨٦٠ إلى ٥٢٠٠٠، وهو رقم كبير حقًا، يمثل زيادة بلغت ٢١ ضعفًا. وإذا شئنا المقارنة، وجدنا أن تعداد سكان الولايات المتحدة ازداد من نحو أربعة ملايين فى عام ١٧٨٠ إلى عشرة ملايين فى عام ١٨٢٠ ثم إلى ٣١ مليونًا فى عام ١٨٦٠، أى إنه تضاعف أقل من ثمانية أضعاف. وهكذا فبينما كان الدين فى أوروبا يزداد اقترانًا بالمؤسسة الاجتماعية، وكان الناس العاديون يتحولون إلى أيديولوجيات بديلة، كانت البروتستانتية فى أمريكا قد منحت الناس قوة الوقوف فى وجه المؤسسة الاجتماعية، واستمر ذلك الاتجاه حتى ليصعب علينا اليوم أن نجد حركة شعبية فى أمريكا لا ترتبط بالدين بصورة ما. وبحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر كانت المسيحية فى أمريكا حية نابضة، وبدت متأهبة لتحقيق انتصارات جديدة.

كانت الصورة بالغة الاختلاف فى أوروبا. فكانت الأيديولوجيات الرئيسية التى يدخل الناس العالم الحديث بها علمانية لا دينية، كما كان اهتمام الناس ينصب بصورة متزايدة على هذا العالم لا على العالم الآخر، على نحو ما اتضح فى كتابات "جورج فيلهلم فريدريش هيجل" (١٧٧٠ - ١٨٣١) الذى هبط بصورة الإله المتعالى إلى الأرض وجعلها صورة إنسانية، قائلاً إن سبيل الإنسان إلى تحقيق ذاته هو كل ما ينتمى إلى هذا العالم لا ما يقع وراءه، ويقول فى كتابه ظواهر العقل (١٨٠٧) إن 'الروح العالمية' (العقل الكلى) لا تحقق إمكاناتها الكاملة إلا إذا غمرت نفسها تماماً فى الظروف المكانية والزمانية، على ما تفرضه تلك من حدود وقيود، وهى تجد أقصى تحقيق لها فى عقل الإنسان، ومن ثم فعلى البشر أن يتخلوا عن الفكرة القديمة - فكرة الإله المتعالى - حتى يفهموا أنهم أيضاً ربانيون. ويمكن النظر إلى هذه الأسطورة، التى تعتبر صورة جديدة من صور الحلول (التجسد) المسيحية، على أنها كانت تمثل علاجاً للإحساس بالاغتراب عن العالم الحديث عند الكثيرين من أبنائه. لقد كانت محاولة لإعادة إضفاء القداسة على عالم أفرغ من الألوهية وللارتقاء برؤية العقل الإنسانى الذى أصبح يبدو محدود الطاقة بسبب فلسفة ديكارت و"كانط". ولكن أسطورة هيجل كانت تعبر أولاً وقبل كل شىء عن قوة الاندفاع التقدمية للحداثة. لم تكن هناك إحالة إلى عصر ذهبى قديم، فالعالم فى نظر "هيجل" يعيد خلق نفسه باستمرار، ولم يكن "هيجل" يؤمن إيمان المحافظين بأن الأول لم يترك للآخر شيئاً، بل كان يتصور عملية جدلية يقوم البشر فيها، باستمرار ودون توقف، بتدمير الأفكار القديمة التى كانت مقدسة ولا خلاف عليها يوماً ما. وطبقاً للمذهب الجدلى، تتولد من كل حالة قائمة حالة مناقضة لها، ويتضارب النقيضان ثم يتكاملان فيما يتحقق بعد ذلك من تركيب جديد، ثم تتكرر العملية وتبدأ خطواتها من جديد. وفى إطار هذه الرؤية لا يمكن العودة إلى الأسس والأصول، بل هو تطور متواصل يؤدى إلى إيجاد حقائق جديدة كل الجدة وغير مسبوقة.

وكانت فلسفة "هيجل" تعبيراً عن قوة التفاؤل الدافعة للعصر الحديث، بعد أن خلف الروح المحافظة وراءه، دون أدنى احتمال فى العودة، ولكن البعض لم يستطع أن يفهم سر اهتمام "هيجل" بموضوع الإله أصلاً، إذ كان بعض الأوروبيين

قد بدأوا النظر إلى الدين ومنطق الروح لا بصفتهما من الموضوعات البالية فحسب، بل باعتبارهما أيضًا قادرين على إحداث ضرر مؤكد بالبشر، قائلين إنهما لا يعالجان إحساسنا بالاغتراب بل يزيدانه ويعمقانه. وهكذا جاء لودفيج فاورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) ليقول إن الدين حين يقيم الإله نقيضًا للإنسانية، فإنه يتسبب في "فصل الإنسان وعزله عن ذاته... فالإله كامل، والإنسان ناقص؛ والإله باق والإنسان فان، والإله قدير على كل شيء، والإنسان لا حول له ولا طول". وكان كارل ماركس يرى أن الدين من أعراض المجتمع المريض، وأنه أفيون يعين البشر على تحمل النظام الاجتماعي المريض، ويحرمهم من الإرادة اللازمة للعثور على علاج شافٍ عن طريق صرف العقل عن هذا العالم وتوجيهه إلى العالم الآخر.

وبدأت آراء الملحدين تحظى بمكانة معنوية رفيعة، على نحو ما اتضح في أعقاب نشر كتاب أصل الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي عام ١٨٥٩ الذي وضعه "تشارلز داروين" (١٨٠٩ - ١٨٨٢) والذي كان يمثل مرحلة جديدة من مراحل العلم الحديث. إذ لم يقف "داروين" عند حدود جمع الحقائق، على نحو ما أوصى به "فرانسيس بيكون"، بل قدم "فرضية" علمية تقول إن الحيوانات والنباتات والبشر لم تخلق في صورتها الكاملة (كما يوحي الكتاب المقدس بذلك) بل تطورت تطوراً بطيئًا على امتداد فترة طويلة من التكيف مع بيئاتها. وقال في كتابه "انحدار نسب الإنسان" (١٨٧١) إنه يفترض أن الإنسان العاقل Homo sapiens انحدر عن طريق الارتقاء من الصورة الأولية للكائنات العليا التي انحدر فيها إنسان الغابة (أورانجوتان) والغوريلا والشيمبانزي. ولقد أصبح اسم "داروين" مرادفًا للإلحاد في دوائر الأصوليين، وإن كان كتاب أصل الأنواع لا يقصد الهجوم على الدين، بل كان عرضًا لنظرية علمية يتسم بالتعقل والدقة. وكان "داروين" نفسه لا أدريًا وإن كان دائمًا ما يبدي احترامه للإيمان الديني. وعلى أي حال فقد أصبح الكتاب المذكور نقطة تحول تاريخية، وبيعت منه ١٤٠٠ نسخة في يوم ظهوره في المكتبات. ولا شك أنه اشترك مع كتب "داروين" الأخرى في توجيه ضربة جديدة لاحترام الإنسان لنفسه. فإذا كان

"كوبيرنيكوس" قد زحزح الإنسان عن مركز الكون، وكان "ديكارت" و"كانط" قد جعلا الإنسان غريبًا في العالم الطبيعي، فإن "داروين" جاء ليوحي بأنه حيوان وحسب، أي بأن الله لم يخلقه بصفة خاصة، بل بأنه نشأ وارتقى مثل سائر الأشياء. وهكذا بدا أنه لا يوجد مكان لإله في عملية الخلق، وأن الدنيا "بأنيابها ومخالبها المخضبة بالدم" ليس من ورائها هدف إلهي.

ومع ذلك ففي السنوات التي أعقبت نشر أصل الأنواع مباشرة، لم تسمع أصوات رد الفعل الديني، وكان أعلى صوت في العام التالي هو صوت الضجة التي ثارت عندما نشر سبعة من رجال الدين الأنجليكانيين كتابًا بعنوان مقالات ودراسات يتيح للقارئ غير المتخصص الاطلاع على أحدث ثمار نقد الكتاب المقدس. وكان العلماء الألمان قد شرعوا منذ أواخر القرن الثامن عشر في تطبيق الطرائق الجديدة في التحليل الأدبي، وعلم الآثار، واللغويات المقارنة، على الكتاب المقدس، مستخدمين المنهجية العلمية التجريبية في الدراسة. فقالوا إن الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس، التي جرى العرف على نسبتها إلى موسى عليه السلام، لم تكتب في الواقع إلا بعد وفاته بزمن طويل، وبأقلام عدد من شتى المؤلفين، وإن سفر إشعياء له مصدران اثنان على الأقل، وأنه من المحتمل ألا يكون داود عليه السلام هو الذي كتب المزامير، وإن معظم المعجزات الموصوفة في الكتاب المقدس لا تزيد عن كونها استعارات أو مجاز أدبي ولا يمكن فهمها فهمًا حرفيًا، وإنه يكاد يكون من المؤكد أن الكثير من الأحداث الواردة في الكتاب المقدس غير تاريخية. وقال رجال الدين البريطانيين في كتابهم المذكور إنه ينبغي عدم معاملة الكتاب المقدس معاملة خاصة، بل لابد من تناوله بأساليب النقد الصارمة التي نطبقها على النصوص الأخرى. كان "النقد الرفيع" الجديد يمثل انتصار الخطاب العقلاني لمنطق الذهن على منطق الروح، أي إن العلم العقلاني قد أخضع ثمار منطق الروح في الكتاب المقدس للفحص الثوري واكتشف أن بعض ما تقوله "زانف"، إذ قال الناس إن حكايات الكتاب المقدس لا تزيد عن كونها أساطير وهي الكلمة التي أصبح معناها لدى العامة مرادفًا لكلمة "أكاذيب"، وهكذا أصبح 'النقد الرفيع' فيما بعد "البعبع" المخيف للأصوليين المسيحيين لأنه

كان، فيما يبدو، هجومًا ضاريًا على الدين، وإن كان سبب ذلك فى الحقيقة هو أن أبناء الغرب قد فقدوا الطاقة الأصيلة لمنطق الروح فأصبحوا يتصورون أن العقائد والقصص الواردة فى الكتب المقدسة من نتاج منطق العقل، أى حكايات تزعم دقة الوقائع وظواهر يمكن بحثها بحثًا علميًا. وهكذا فإن النقد الرفيع قد أثبت استحالة قراءة الكتاب المقدس قراءة حرفية تمامًا، وربما يكون قد ساهم بذلك فى تقديم المقابل الصحّى للاتجاه الذى كان يتنامى لإضفاء الطابع "العلمى" على الدين المسيحى الحديث.

وعندما لاحظ بعض المسيحيين، مثل آسا جراى (١٨١٠ - ١٨٨٨) وهو صديق أمريكى لداروين وعالم مثله، التفاوت القائم بين فرضية داروين والأصحاح الأول من سفر التكوين، حاولوا التوفيق بين الانتخاب الطبيعى وبين القراءة الحرفية لسفر التكوين، وبذلك وُلد ما يسمى "بعلم الخلق" الذى كتب له أن يقطع أشواطًا طويلة فى محاولة إضفاء الاحترام العلمى على سفر التكوين، ولكن ذلك كان معناه عدم إدراك طبيعة المسألة، فقصة الخلق الواردة فى الكتاب المقدس تقوم على منطق الروح وليست سردًا تاريخيًا لأصل الحياة، أى إنها أقرب ما تكون إلى التأملات الروحية للدلالة القصوى للحياة نفسها وهى التى لا شأن لمنطق العقل بها.

والواقع أن نشر أصل الأنواع قد تسبب، دون قصد من داروين، فى وقوع مناوشة مبدئية بين الدين والعلم، وإن كانت الطلقات الأولى فى ذلك الاشتباك لم يطلقها أهل الدين بل العلمانيون العدوانيون. فرأينا فى انجلترا توماس هـ. هكسلى (١٨٢٥ - ١٨٩٥) وفى القارة الأوروبية كارل فوغت (١٨١٧ - ١٨٩٥) ولودفيج بوخنر (١٨٢٤ - ١٨٩٩) وجاكوب مولشوط (١٨٢٢ - ١٨٣٩) و إرنست هيكل (١٨٣٤ - ١٩١٩) يشيعون نظرية داروين بين الناس، فيطوفون بالبلدان، ويحاضرون الجماهير المحتشدة، فى محاولة لإثبات التناقض بين العلم والدين، وكانوا فى الواقع يدعون لحملة مناهضة للدين.

كان هكسلى يرى بوضوح أنه يواجه معركة لا شك فيها، مؤكدًا أن العقل لابد أن يكون المعيار الأوحد للحقيقة، وأن على الناس أن يختاروا إما منطق الروح أو

العلم العقلانى، بمعنى استحالة الحلول الوسط، "فلابد أن يستسلم أحدهما بعد صراع مجهول الأمد" وكان هكسلى يرى أن العقلانية العلمية دين علمانى جديد، يتطلب التحوّل إلى اعتناقه والالتزام الكامل به. فكان يقول لجمهوره "عليكم أن تتبعوا عقولكم فى المسائل الفكرية أينما مضت بكم هذه العقول، بغض النظر عن أى اعتبار آخر، وعلى العكس من ذلك، لا تتظاهروا بأن أى نتيجة تتوصلون إليها فى أى مسألة فكرية قد بلغت حد اليقين إذا لم تثبت صحتها وما لم يكن من الممكن إثبات صحتها". وكان هكسلى يستند إلى تيار الثقافة الحديثة التقدمية برمته، الذى ألجز من النتائج الباهرة ما جعله قادراً على الزعم بأنه وحده الحَكَمُ فى حقيقة الأشياء. ولكن تعريف الحقيقة قد ضاق هنا فأصبح يقتصر على "ما تثبت صحته ويمكن إثبات صحته"، وهو تعريف من شأنه، إذا نحّينا الدين جانبًا، استبعاد حقيقة الفن أو الموسيقى. أى إن هكسلى لم يكن يرى إمكان ولوج طريق آخر. فالعقل لديه هو الصادق، وثمار منطق الروح التى يأتى بها الدين كاذبة، أى إن ذلك كان بمثابة إعلان نهائى للاستقلال عن قيود منطق الروح التى سادت فى الفترة المحافظة. فلم يكن على العقل أن يلجأ إلى محكمة أعلى، فلا يعترف بقيود الأخلاق بل يجب أن يسير فى الطريق إلى النهاية "بغض النظر عن أى اعتبار آخر". ومضى أصحاب هذه الحملة فى أوروبا إلى مدى أبعد من ذلك فى حربهم ضد الدين، فوضع "بوخنر" كتابًا حقق مبيعات هائلة عنوانه القوة والمادة، وكان كتابًا بدائيًا لم يحظ باحترام هكسلى نفسه، وكان يقول فيه إن الكون لا غاية له، وإن كل شىء فى الدنيا نشأ من خلية بسيطة وإنه لا يؤمن بالإله إلا البلهاء. ولكن الأعداد الكبيرة من الناس الذين قرأوا هذا الكتاب والجماهير الغفيرة التى كانت تحتشد لسماع محاضرات هيكيل كانت تدل على أن عدداً لا يستهان به من أبناء أوروبا كانوا يريدون أن يسمعوا أن العلم قد أثبت خطأ الدين بصورة نهائية.

كان السبب فى ذلك هو أن العلماء والنقاد والفلاسفة المحدثين قد تناولوا الحقائق الدينية كأنما كانت ثماراً لمنطقة العقل، فبدت غير معقولة، وفى عام ١٨٨٢ أعلن فردريش نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) أن الإله قد مات. وهو يقص فى

كتابه العلم المرح قصة رجل مجنون يجرى ذات صباح فى السوق صائحًا "أريد الإله !" وعندما سأله السابلة فى دهشة واستعلاء إن كان يتصور أن الرب قد هاجر أو فر هاربًا اتسعت حدقتا عينى المجنون وصاح "أين ذهب الإله ؟ لقد قتلناه - أنتم وأنا ! نحن جميعًا قتلته !" وكان المعنى المهم الذى يرمى إليه نيتشه هو أن الإحساس بالقداسة يذوى ويموت دون منطق الروح، ودون عقائد وطقوس وصلوات، أى إن المحدثين حين حَولوا "الإله" إلى حقيقة فكرية خالصة، وبذلوا جهودهم للتوصل إلى الإله عن طريق الذهن وحده، على نحو ما حاول بعض المؤمنين المحدثين أن يفعلوا، فإنهم قتلوا الإحساس به فى أنفسهم. أى إن حركة الثقافة المتجهة إلى المستقبل برمتها جعلت من المحال عليهم ولوج الطرائق التقليدية لإدراك القداسة إدراكًا نفسيًا. وكانوا يشبهون، من هذه الزاوية، اليهود "الماراتو" القدامى الذين وجدوا أنفسهم، لأسباب بالغة الاختلاف، فى برزخ دينى حائر، إذ كان الكثيرون من المحدثين يرون أن حقائق الدين هشة وتعسفية وغامضة.

كان المجنون الذى صوره نيتشه يقول إن موت الإله قد اقتلع الإنسانية من جذورها، وتسبب فى انحراف الأرض عن مسارها، وجعلها تضرب على غير هدى فى كون تسوده الفوضى، فكل ما كان يرسم للإنسانية وجهتها وطرائقها قد اختفى. وكان يتساءل : أما زال هناك 'أعلى' و'أسفل' ؟ أفلسنا ضالّين كأنما نسير فى شعاب عدم لا نهائى ؟" وهكذا فإن الرعب العميق، والإحساس بانعدام المعنى وبالفناء، سوف يصبح جزءًا من تجربة الحداثة. وكان نيتشه يكتب ما كتبه فى الوقت الذى كانت فرحة الحداثة الطاغية قد بدأت تفضى إلى خشية مجهولة. ولم يقتصر تأثير ذلك على المسيحيين فى أوروبا، بل امتد إلى اليهود والمسلمين الذين كانوا قد بدأوا أيضًا خطوات التحديث، وواجهوا فيه الحيرة نفسها.